



جامعة جرش
عمادة البحث العلمي
والدراسات العليا

طوق الحمامة في الألفة والألف

لابن حزم الأندلسي

دراسة سردية

إعداد الطالبة:
إنصاف إبراهيم كساب

إشراف
الأستاذ الدكتور عزمي الصالحي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على
درجة الماجستير في اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة جرش - الأردن.

أيار ٢٠١٤م

التفويض

أنا الطالبة إنصاف إبراهيم كساب أفوض جامعة جرش بتزويد نسخ من رسالتي
للمكتبات أو الهيئات والأشخاص عند طلبها.

الاسم: إنصاف إبراهيم كساب

التوقيع:

التاريخ:

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة للطالبة إنصاف إبراهيم كساب بتاريخ ٢٠١٤/٧/١٥م وعنوانها:

طوق الحمامة في الألفه والألاف
لابن حزم الأندلسي
دراسة سردية

وأجيزت في يوم الثلاثاء ٢٠١٤/٧/١٥م.

التوقيع






أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور عزمي الصالحي/ مشرفاً رئيساً
أستاذ/ لغة عربية/ جامعة جرش
الدكتور محمد الربيع/ عضواً
أستاذ/ لغة عربية/ جامعة جرش
الدكتورة جودي بظاينة/ عضواً
أستاذ مشارك/ لغة عربية/ جامعة جرش
الدكتور أيمن الأحمد/ عضواً خارجياً
أستاذ/ لغة عربية/ جامعة اربد الأهلية

الإهداء

إلى من غرس في داخلي الأصرار والطموح ...
إلى روح والدي العزيز رحمه الله

إلى من علمني الصبر والنجاح ...
إلى زوجي الغالي

إلى سبب وجودي ومبعث الحنان ...
إلى أمي الغالية

إلى ابنائي قرة عيني ...
يامن و غنى

الشكر والتقدير

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وبعد.

أول ما أبدأ بالشكر لله رب العالمين الذي وفقني للوصول إلى هذا العمل، ثم الشكر والتقدير إلى الدكتور الفاضل "عزمي الصالحي" الذي كان له الدور الكبير والمميز في دعمي ومساندتي ومتابعة عملي أولاً بأول وكان لإرشاداته الأثر العظيم لإخراج الرسالة بهذه الصورة.

كما أتقدم بالشكر لزوجي وأهلي على مساندتي ودعمي المادي والمعنوي لإنجاز هذا

العمل.

إنصاف

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
ب	التفويض
ج	قرار لجنة المناقشة
د	الإهداء
هـ	شكر وتقدير
و	قائمة المحتويات
ح	الملخص
١	المقدمة
٧	الفصل الأول:
	التعريف بطوق الحمامة في الألفية والألف وبمؤلفه
	ابن حزم الأندلسي
١٠	التعريف بابن حزم صاحب (طوق الحمامة)
١١	نشأة ابن حزم وطفولته
١٣	نشأة ابن حزم الفكرية ومؤلفاته
١٥	التعريف بطوق الحمامة في الألفية والألف
١٦	تاريخ تأليف الطوق ودوافعه
١٩	دلالة العنوان (طوق الحمامة في الألفية والألف)
٢٠	أبواب الرسالة
٢٤	الحب في طوق الحمامة
٢٧	المنهج الذي ألف على وفقه الكتاب
٣٠	الفصل الثاني:
	الاستهلالات السردية في طوق الحمامة وأشكالها
٣١	الاستهلالات السردية في طوق الحمامة

٣١	مفهوم السرد
٣٦	تعددية الضمائر
٣٦	أولاً: ضمير الغائب
٤٠	ثانياً: ضمير المتكلم
٤٦	ثالثاً: ضمير المخاطب
٤٨	تنكير الشخصية
٥٠	الحوار
٥١	الحوار الداخلي أو المونولوج
٥٣	لغة الحوار في طوق الحمامة
٥٤	الاسترجاع أو السرد الاستنكاري
٥٧	العلاقة بين الوصف والسرد في طوق الحمامة
٦٣	الفصل الثالث:
	دراسة تقييمية لمكانة طوق الحمامة بين كتب العشق
٦٤	دراسة تقييمية لمكانة طوق الحمامة بين كتب العشق
٧٩	المرأة في طوق الحمامة وكتب العشق الأخرى
٩٠	العناصر الفنية في طوق الحمامة
٩٠	الشعر
٩٢	التناص
٩٦	الاقتباس
١٠٠	الخاتمة
١٠٣	قائمة المصادر والمراجع
١٠٧	Abstract

طوق الحمامة في الألفة والألف

لابن حزم الأندلسي

دراسة سردية

إعداد الطالبة:
إنصاف إبراهيم كساب

إشراف الدكتور:
عزمي الصالحي

الملخص

هدفت الدراسة إلى تحليل كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي ودراسته دراسة سردية بالوقوف على الاستهلالات السردية في الطوق، وتحليل أهم أشكالها ومنها تعددية الضمائر وتتكير الشخصية والاسترجاع أو السرد الاستذكاري، كما تضمنت الرسالة أهم تقنيات السرد: الوصف والحوار.

كما تطرقت الرسالة إلى دراسة طوق الحمامة دراسة تفويمية في ظل كتب العشق الأخرى.

وحاولت الباحثة أن تستشرف مكانة المرأة العربية المسلمة في الأندلس من خلال مكانة المرأة في طوق الحمامة فضلاً عن صورتها في كتب العشق الأخرى.

وتناولت الرسالة الجانب الفني بتحليل العناصر الفنية المختلفة في طوق الحمامة من شعر وتناص واقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية والأمثال.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، أحمدك حمداً
يوافي نعمك ويكافئ مزيدك وأصلي وأسلم على حبيبك سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا
إنك أنت العلي العظيم أما بعد:

فإذا كان الحديث عن كتاب طوق الحمامة في الألفة والألف لابن حزم
يقتضي القول أنه ليس بالأمر الجديد، إذ تناوله الدارسون بالبحث والتحليل
والدراسة قديماً وحديثاً عرباً ومستشرقين، فإن الباحثة وجدت أن أغلب هذه
الدراسات نظرت إلى الكتاب نظرة أدبية، بعيداً عن كونه فناً من فنون السيرة
الذاتية، وبعيداً عن دراسته دراسةً سردية، فضلاً عن أن الدارسين المعاصرين
درسوا ابن حزم بهدف التعريف به بوصفه شخصيةً أندلسيةً ورائداً من رواد الفكر
العربي، ومن ثم فهذه الدراسة تسعى إلى أن تتناول الكتاب بالدراسة بأسلوب تلتقي
فيه الطريقة الأصيلة للثقافة العربية بالطريقة النقدية المعاصرة.

الكتاب تناول الحب في أسمى نزعاته بالعرض، وقدّم هذه العاطفة الرقيقة،
من خلال الكشف عما يدور في النفوس، من شغف وحنين إلى اللقاء والشكوى
من الفراق بأسلوب طريف وممتع، يعرض فيه ابن حزم أجمل قصص المحبين

بسردي ينساب رقيقاً، ويذكر علامات الحب وماهيته وآفاته. ويأتي ابن حزم بأمثلة من تجاربه الخاصة به، مع ملاحظاته على المحبين من أهل عصره، فيقدم لهم النصح فيما يعرض لهم من أمور ومشكلات.

ويمكن عد ميل ابن حزم إلى التأمل والتفكير الجديين، والتمرس بالقضايا الأخلاقية، نتيجة لما عاناه من أزمة نفسية، ومرَّ به من أسى وحزن، جراء فقدان من أحب، فهو بذلك يعترف علانية بأنه جرب الحب وذاق لوعته وأوجاعه، ما يجعله يشعر بمعاناة من يحب ويعيش معه تجربته.

فابن حزم تحدث عن تجربته بصراحة، فحبه كان عذرياً، يحمل عاطفةً نبيلة، مما جعله يصور الحب بأجمل الصور وألطفها، فليس بالغريب أن يحب رجل دين وفقه، وأن يتحدث عن تجاربه الشخصية، لأنه إنسان له عواطفه ومشاعره التي لا يمكن لأحد أن يجرده منها.

ومن الأسباب الأخرى لاهتمام ابن حزم بالحب وقضاياها أكثر من معاصريه، البيئة التي نشأ فيها، فلا شك في أن البيئة هي التي صقلت شخصيته وتحكمت بميوله، فتطبعت نفسه على حب الرقة والجمال.

لم يكن ابن حزم أول من خاض في مضمار الحب والمحبين، فقد سبقه إلى ذلك صاحب كتاب **(الزهرة)** ابن داود الأصبهاني، وتلاه ابن سراج في كتابه **(مصارع العشاق)** إلا أن ابن حزم تفوق عليهما في هذا المجال، وكان كتابه أكثر إبداعاً وإتقاناً، في دقة منهجه وتسلسل موضوعاته وأفكاره وترباطها، فضلاً عن رقة حسّه ومشاعره التي انعكست في مؤلفه، فقد التزم ابن حزم بمنهج يمتاز بالجدة والابتكار، فقد التزم بإيراد تجاربه الواقعية التي وقعت له شخصياً أو وقعت لغيره وحدثه بها الثقات. وابتاع هذا المنهج انقذ رسالته من الجنوح إلى الخيالات، ومنعها من التردّي في المبالغات.

وللأهمية التي يتمتع بها طوق الحمامة، فقد أقبل الباحثون على دراسته، ومن أهم الدراسات السابقة، التي تناولت طوق الحمامة بالدراسة والتحليل، والتي مهدت لي الطريق الصحيح لدراسة طوق الحمامة كتاب **(الحب في التراث العربي)** للدكتور محمد حسن عبد الله الذي تناول بالبحث الحب بوصفه ظاهرة إنسانية في التراث العربي، منذ الجاهلية وعصور صدر الإسلام والخلافة إلى عصرنا الحديث، فقد بدأ كتابه بتعريف الحب على عادة من ألفوا في الحب، ثم حلل هذه الظاهرة، وعرّج على أهم الدراسات السابقة لدراسة ابن حزم، مثل **(الزهرة)** لابن داود الأصبهاني، **(نم الهوى)** لابن الجوزي اللذين اشتركا مع ابن حزم في ذكر سبب التأليف الذي حصل بدعوة من صديق، كما تناول دراسة

الحب في الدراسات الموسوعية، كدراسة الحب عند ابن قتيبة (٢٧٦هـ)، الذي يمثل المحاولة الأولى في هذا المضمار، فقد خصص الجزء العاشر من كتابه الموسوعي (عيون الأخبار) ليضم (كتاب النساء في أخلاقهن وخلقهن) ثم تناول الفلقشندی الذي يمثل المحاولة الأخيرة في هذا المجال الموسوعي.

وكان من بين أهم الدراسات التي نورت بصري وغذت فكري دراسة عبد الملك مرتاض في كتابه (في نظرية الرواية)، ومصطفى عبد الواحد (دراسة الحب في الادب العربي)، وعبد الله ابراهيم (السردية العربية الحديثة).

لكن هذه الدراسات، على الرغم من فائدتها الكبيرة، انصب جهد البحث فيها على شخصية ابن حزم الأدبية مع التركيز على طفولته ونشأته ومصادر ثقافته ومنجزاته العلمية وأهم آثاره، وتناولت كتابه (طوق الحمامة) بدراسة ظاهرة الحب وتحليلها فيه وربطها بالكتب السابقة، واللاحقة لها من حيث الموضوع فحسب. ولم تعن بموضوع السرد وخصائصه وتقنياته في الطوق.

وهذا يعني أن الدراسة السردية غابت عن أعمال هؤلاء، فلا شك في أن الدراسة السردية تتيح تناول عناصر السرد، من وصف وحوار كما تمكن من بحث تقنيات السرد في طوق الحمامة، كاستخدام ابن حزم تقنية الاسترجاع والاستباق أو تكبير الشخصيات أو الاستذكار وغيرها من التقنيات المستعملة في

طوق الحمامة، لذا انصبّ الجهد على دراسة الطوق دراسة سردية، فعني بتحليل عناصر السرد وأهم التقنيات السردية التي تظهر في أسلوب ابن حزم وسرده، مع السعي ما وسع الجهد إلى الإتيان بالجديد.

إن الدافع الذي أغرى الباحثة بالخوض في دراسة طوق الحمامة يكمن في أهمية الكتاب والمكانة التي يحتلها بين الكتب في موضوعه، فضلاً عن كونه كتاب سيرة ذاتية، أي أنه ألقى الضوء على حياة ابن حزم وسيرته وكشف لنا بذلك الكثير من جوانب الحياة الأندلسية فيسّر للدارسين الكثير من المعلومات والأخبار عن أسرار حياة الحكام والرؤساء، كما قدم الكثير من المعلومات عن نشاطات النساء وعاداتهن وثقافتهن وأسرار مجالسهن، فالطوق يعكس لنا صورة حية لواقع الحياة الأندلسية بجوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية، والطوق بما تضمن من المعلومات عن سير المحبين والمسؤولين وعن سلوكهم وتصرفاتهم، يمكن أن يندرج ضمن المحاولات المبكرة في علم النفس، لأن ابن حزم في دراسته لظاهرة الحب أبدى الكثير من الملاحظات النفسية الدقيقة والآراء الفلسفية العميقة، عرضها بأسلوب سلس بعيد عن الإطالة والتشتيت، على عكس ما درج عليه الكتاب العرب، فبدأ الحديث معرفاً بماهية الحب، ثم نشأته متقصياً علاماته ومظاهره، ومستعرضاً أنواعه، ثم تتبّع أحوال المحبين وما يعترض حُبهم من وصل وهجر وبين ووفاء وغدر وسلو وموت، وينهي بالحديث عن صلة الحب بالشهوة بلغة الطهر والعفاف بعيداً عن لغة الشعراء الحسينيين.

ولقد اتبعت الباحثة في هذه الدراسة منهج تحليل النصوص وآلياته وتقنياته
فحلت نصوص طوق الحمامة لتتاح لي دراستها دراسة سردية واعية، وبيان ما
تحتويه من عناصر وتقنيات سردية وتوضيحها مدعمة بالأمثلة من كتاب طوق
الحمامة.

فضلاً عن الاستئناس بآليات المنهج التاريخي، إذ لا يمكن دراسة أي
عمل أدبي دون الاستعانة بغيره من الأعمال المشاركة له في الموضوع، وهذا
يقتضي الاستعانة بمعطيات المنهج التاريخي. فالعودة للتاريخ ضرورة لدراسة
هذه الظاهرة عبر كتب التاريخ، ثم إن إجراء دراسة تقويمية لطوق الحمامة في
ضوء كتب العشق الأخرى يلزم الاتكاء على شيء من آليات المنهج المقارن.

الفصل الأول
التعريف بطوق الحمامة في الألفه والألاف
وبمؤلفه ابن حزم الأندلسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل بينكم مودة ورحمة أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)^(١) صدق الله العظيم

فالحب (المودة) الذي جاء في القرآن الكريم مقترناً بالرحمة، نفحة سماوية عطرة تفعم أجواء النفوس بكل ما رقّ ولدّ وطاب، فهو عاطفة جياشة في الصدور، وما قصص الحب التي فاح أريجها، على امتداد العصور، في أرجاء الكون إلا انعكاس لما في النفوس من آهات وأوجاع أو سعادة وصفاء.

ان الكتب الأدبية، عربية وأجنبية، تعج بقصص الحب المختلفة التي تمثل الواقع الاجتماعي والنفسي، بكل صدق وموضوعية، لمن عاشوا في غمار أحداثها، وذاقوا من كؤوسها.

وقد حفلت المصادر العربية بالقصص والأخبار وبأسماء كثيرة ممن عقدت علاقات الحب الخالدة بينهم. وعني بعض هذه المصادر بصفات الحب وأحواله ومراتبه، وذكر كثيراً منها، مما ورد في الأدب العربي شعره ونثره، من جميل القول وصادقه في الحب والحبيب وما بينهما من مواجد وأحوال. ومن ذلك

(١) القرآن الكريم، سورة الروم، الجزء (٢١)، آية ٢١.

ما عقده أبو منصور الثعالبي في كتابه "فقه اللغة وسر العربية" من فصل في مراتب الحب وتفصيل حالاته، إذ جاء فيه: "أول مراتب الحب الهوى ثم العلاقة، وهي الحب اللازم للقلب، ثم الكلف وهو شدة الحب، ثم العشق، وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب، ثم الشغف وهو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها، وكذلك اللوعة واللاهج... ثم الهوى وهو الهوى الباطن، ثم التتيم، وهو أن يستعبده الحب، ثم التبتل وهو أن يسقمه الهوى، ثم التدليه، ثم الهيوم"^(١).

وتعج كتب التاريخ أيضاً بالقصص والحكايات والأخبار التي تتحدث عن الحب والمتحابين وما جرى بينهم، حتى أن بعض هذه الكتب أخلص تأليفه لهذا الغرض فقد ألف في هذا الميدان كتب كثيرة لها قيمتها التاريخية والأدبية، ومن أهمها كتاب (الزهرة) لمحمد بن داود الأصبهاني الظاهري الذي توفي سنة (٢٩٧) هـ، ثم كتاب (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) لابن حزم الظاهري الذي كتبه ما بين سنتي (٤١٧-٤١٨) في شاطبة، ثم كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج الذي تم تأليفه سنة ٤٩٣ هـ.

(١) الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، المجلس الوطني للعلماء والثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٨، ص ٢٩١-٢٩٢.

إن الدارسين لعاطفة الحب قد أفاضوا في الحديث عن الحب وأسمائه ودرجاته وصفاته وأصنافه وأشكاله ومظاهره، تبعاً لاختلاف النفوس والتجارب والأمصار والعصور .

وستعنى هذه الدراسة بكتاب فريد يعد من أشهر كتب العشق، وهو كتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" لابن حزم الأندلسي الفقيه الظاهري .

التعريف بابن حزم صاحب (طوق الحمامة):

ولد صاحب طوق الحمامة: أبو محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري، في ليلة الفطر سنة ٣٨٤هـ، في منية المغيرة، وهي ضاحية على الشرق من قرطبة^(١)، وكان أبوه وزيراً يرجع أصله إلى أسرة قوطية.

كان ابن حزم حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستتباً الأحكام من الكتاب والسنة، وكان شافعي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر^(٢)، وأصبح أهم أعلام الظاهرية^(٣).

(١) انظر الحميدي، عبد الله بن محمد بن أبي نصر الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠٨، ص ٣٠٩.

(٢) انظر ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، المجلد الثالث، دار صادر، بيروت، (د.ت).

(٣) الظاهريه : خامس مذاهب أهل السنه ، ويسمى أتباعه الخوامس ويؤمن بظاهر النصوص.

عاش ابن حزم زاهداً في الدنيا، فقد انصرف إلى العلم والتأليف، روي عن ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمئة مجلد، تشتمل على قريب من ثلاثين ألف ورقة، فقد برع في كل العلوم، فكان حامل فنون من حديث وفقه وجدلٍ ونسب وأدب، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة في الفلسفة والمنطق^(١).

نشأة ابن حزم الأندلسي وطفولته:

نشأ ابن حزم في أسرة عريقة بالإسلام، إذ كان أبوه وزيراً في الدولة العامرية للمنصور بن أبي عامر ولابنه المظفر^(٢).

أمضى ابن حزم طفولة ناعمة بين الجواري في القصر، وشهد مجالس الأمراء والوزراء مع أبيه يسمع الأخبار والأشعار التي نمت ذوقه وأغنت فكره. وبدأ اهتمامه بالعلم منذ طفولته، فقد تلقى علومه الأولى على أيدي الجواري، فقرأ القرآن الكريم وروى الشعر^(٣).

(١) انظر الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ج ٤، ص ٢٥٤.

(٢) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٠٨.

(٣) انظر ابن حزم الأندلسي، أبي محمد علي بن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألف، تحقيق احسان عباس، ٢٠٠٨، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، ص ١٦٦.

ويبدو أن البيئة النسوية التي عاش فيها ابن حزم أكسبته معرفة بأحوال النساء وأسرارهن، كما فتحت له المجال ليعيش تجربة عاطفية فتحت قلبه الغض على العشق.

هذه البيئة النسوية أمدته بالكثير من قصص العشق، وأطلعته على العديد من أحواله، وأكسبته رقة المزاج والمشاعر، وبعد أن وصل ابن حزم إلى سن الخامسة عشرة بدأت مرحلة جديدة من حياته، وهي مرحلة التحصيل والعلم خارج البيت، إذ بدأ بارتياح مجالس العلماء. لكن الظروف لم تترك لابن حزم أن يتفرغ إلى العلم الذي أخذ على نفسه تحصيله تفرغاً تاماً، إذ دفعته هذه الظروف إلى الخوض في غمار السياسة، ثم كان أن قبض عليه لولائه للأمويين، وسجن في المرية، ثم نفي منها، بعد ذلك ذهب إلى حصن القصر، منتقلاً إلى بلنسية، ليكون في نصرة الأمير الأموي عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى الذي فشلت حركته، وصار أنصاره بين قتيل ومعتقل. وكان الاعتقال من نصيب ابن حزم، إذ قبض عليه صاحب غرناطة فسجنه حيناً ثم أطلق سراحه، فوافته الفرصة واستأنف حياته العلمية والأدبية حيناً. ثم حدث أن بويع لأموي جديد محب للمفكرين والأدباء، هو المستنصر الذي جعل ابن حزم وزيراً له، ولكن المستنصر سقط وقام المستكفي مكانه، فسجن ابن حزم وظل سجيناً إلى سقوط المستكفي.

وعلى الرغم من كل هذه الفوضى والاعتقال والأسر والنفي وما لقي خلالها من المرارة والعنت، ظل ابن حزم تواقاً إلى المعرفة والانصراف للعلم، فهاجر إلى شاطبة وهناك عكف على الدرس والتأليف، فكتب "طوق الحمامة" ما بين سنتي (٤١٧-٤١٨^(١)) وبعد سقوط الخلافة الأموية لم يعد هناك ما يشغل ابن حزم عن العلم، فأصبحت حياته خالصة للعلم ونشره بين الناس، ونشر المذهب الظاهري الذي تحول إليه وأمن به، وناجح عنه طيلة حياته، وانحرف عن مذهب غيره، حتى وسم به ونسب إليه، فكان يحمل علمه ويجادل فيه حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه وأجمعوا على تضليله فانتهى به الأمر إلى بادية (لبله) وبها توفي رحمه الله سنة ٤٥٦هـ^(٢).

نشأة ابن حزم الفكرية ومؤلفاته:

من أشهر مؤلفات ابن حزم ما كتبه في الأدب والتاريخ، وعلى رأسها (طوق الحمامة في الألفة والألاف) وقد ترجم إلى أكثر من لغة، منها :

١- الإنكليزية ترجمة نيكول في باريس سنة ١٩٣١

٢- الروسية ترجمة كراتشكوفسكي طبعت في موسكو وليننجراد سنة ١٩٣٣

٣- الألمانية ترجمة فايسفايلر نشرت في ليدن سنة ١٩٤١. (٣)

(١) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، وزارة الثقافة عمان - الأردن، ٢٠٠٨ ص ٣٨.

(٢) ابن بسام، أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٣) بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، القسم الرابع الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٣، ص ١٠٥.

أيضاً له رسالة في فضل الأندلس: ألفها لصديقه أبي بكر محمد ابن اسحق، رداً للمحسن ابن محمد القيرواني، نعى فيها على أهل الأندلس عدم اهتمامهم بتاريخ علمائهم.

(ونقط العروس في تاريخ الخلفاء)، ونشره زيبولد اعتماداً على مخطوط ميونخ. وجمهرة النسب **(أنساب العرب)**، وأيضاً **(أنساب البربر)**.

كما له أيضاً كتب في الفقه، ومنها:

كتاب **الإحكام في أصول الأحكام**.

وله كتاب **(المحلى في الفقه)**، ألفه على مذهب الشافعية قبل تحوله إلى المذهب الظاهري.

وكتاب **(إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعديل)**، وكتاب **(الإيصال إلى فهم الخصال)**، له مختصر أعده ابنه أبو رافع. وله كتب في العقائد والجدل:

كتاب **(الفصل في الملل والأهواء والنحل)**: طبع في القاهرة في خمسة مجلدات.

وله كتب في علوم القرآن والحديث، منها: كتاب **الناسخ والمنسوخ**، وأسماء الصحابة والرواة وما لكل واحد منهم من الأحاديث. وله كتب في الزهد وعلم الأخلاق، ومنها: رسالة مداواة

النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل. وله كتب في الفلسفة منها: رسالة في مراتب العلوم^(١).

التعريف بطوق الحمامة في الألفه والآلاف:

يقع كتاب طوق الحمامة في مجلد واحد يحوي (٤٥٤) صفحة مع الفهارس، وقد أصدر المستشرق بتروف طبعة من كتاب طوق الحمامة (١٩١٤) اعتماداً على النسخة المحفوظة في ليدن بهولندا ثم توالى بعد ذلك الكثير من الطبعات التي اعتمدت على طبعة بتروف ومن أهمها طبعة لليون برشيه (١٩٤٩)، وطبعة بتحقيق حسن كامل الصيرفي (١٩٥٠)، وطبعة بتحقيق فاروق سعد (١٩٦٨)، وطبعة بتحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي (١٩٧٧)، وطبعة بتحقيق الدكتور احسان عباس (١٩٨٠)، والتي اعتمدت عليها في دراستي للطوق أكثر من باقي الطبعات لوضوحها ومرونتها^(٢).

تدور موضوعات الكتاب حول طبائع البشر وعاداتهم في الحب، وحول حالات المحبين، من خلال عرض قصصهم وحكاياتهم، مع تضمينها ما يناسبها مما ورد في القرآن الكريم من العظات والإشارات أو ما يعجب به من الأشعار، فمن بين هذه الحالات ما يخص ابن حزم نفسه. ومن ثم فإنه يمكن أن يعد الطوق سيره

(١) انظر بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، القسم الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٠٥-١١١.

(٢) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفه والآلاف، تحقيق إحسان عباس، وزارة الثقافة، عمان - الأردن، ٢٠٠٨، ص ٢٠.

ذاتية لصاحبه، فابن حزم لم يتحرج من ذكر الأخبار والقصص التي تتضمن أخبار علاقاته مع المحبوبات التي مرت به، ليأخذ من قرأها أو سمعها العبرة منها.

تاريخ تأليف الطوق ودوافعه:

بالرغم من قسوة الظروف التي مر بها ابن حزم، من سجن ونفي وأسر، لم ينصرف عن العلم والتأليف وعندما استوطن شاطبة عام ٤١٧هـ، ألف كتابه "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" أما السبب في تأليف الكتاب فقد أورده في صدر رسالته في باب ماهية الحب، إذ أنه جاء تسليّةً لصديق ذي ودّ صحيح لابن حزم، فكتب إليه يسأله في كتاب زادت معانيه على ما في سائر كتبه من قبل، يسأله رأيه في هذا الذي نشب فيه، ويتحدث إليه بحديث الحب في صفته ومعانيه وأسبابه^(١).

ان ابن حزم، في أحاديثه العاطفية، اعتمد على التجربة الذاتية، والملاحظة والتحليل النفسي، لاستخلاص النتائج، ويظهر ذلك كقوله أنه أحبّ جارية شقراء الشعر ولم يستحسن بعدها سوداء الشعر، أيضاً ما أورده في باب الوصل عندما قال انه ما روي من ماء الوصل قط الا وازداد ضمّاً ، وكذلك قوله في باب الهجر أنه امتحن الهجر والوصل فكان في الوصل أشدّ من الحديد وأنفذ من

(١) انظر ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة ، تحقيق احسان عباس ، ص ٨٤-٨٦.

السيف أما في الهجر فكان أذلّ من الرداء وألين من القطن (١). فكان في منهجه هذا نوعٌ من الجدة والابتكار، وهذا ما ميّزه عن سابقه من مؤلفي كتب الحب.

ولقد أثر ابن حزم أن يأخذ بما شاهده أو سمعه عن الثقات من قصص عصره، وهذا ما أكسب كتابه الموضوعية والمصداقية، وجعله بعيداً عن الأساطير والخرافات، فهو يحاكي المشاعر، ويتعمق بها ويعالجها ويتحدث بصوتها، فيخفف من معاناة العشاق، وهذا ما ميز الطوق عن غيره من الكتب التي تدور حول هذا الموضوع

أما الدكتور طه حسين، في مقال له بعنوان "مقال في الحب" كتبه سنة ١٩٤٦ فلا يكتفي بتسويغات ابن حزم، لبيان سبب التأليف، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، وتحديدًا إلى عصر ابن حزم ومجتمعه، فهو يقول: "والظاهر أن الحب كان رائجاً في إسبانيا المسلمة أيام ابن حزم، وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفي من أرض وطنه، قد فرغ لكتابة رسالة فنية، وهو لم يفرغ لكتابة هذه الرسالة إلا لأن صديقاً من أصدقائه الفقهاء المحدثين المتأدبين قد طلب إليه أن يكتب هذه الرسالة، فلولا أن الأمر له شيء

من مضطر لما طلب هذا الفقيه المحدث الأديب إلى ابن حزم أن يفرغ له ويكتب فيه^(١).

فطه حسين يرى أن الحب قد شغل ابن حزم في حياته كلها، كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام. ومن خلال قراءة الكتاب يلاحظ أن الحب لم يشغله وحده وإنما شغل الناس جميعاً في الأندلس، ليس المهم في الأمر ما إذا كان الدافع لتأليف الطوق رغبةً من صديق أم رغبةً من ابن حزم نفسه، المهم أن قيمة الكتاب أكبر من كونه كتاباً اشتمل على أفكار تناولت الحب بشتى جوانبه، وإنما ما اشتمل عليه أيضاً من حكايات وقصص كثيرة قدمت لفتةً جميلةً للمرأة الأندلسية وما هي عليه من الوفاء والحب للزوج حتى بعد وفاته.

ومن خلال هذه الحكايات، يكشف ابن حزم عن الكثير من جوانب الحياة الأندلسية. كما يحمل الكتاب قيمة أخرى تتمثل في أنه يكشف عن جانب كبير من حياة ابن حزم الخاصة، فالطوق كان مرآةً عكست ما عاناه ابن حزم وما عاشه وما تمناه طيلة حياته. ومن ذلك قوله في باب السلو: "وعني أخبرك أنني جبلت على طبيعتين لا يهنأني معهما عيش أبداً: وفاءً لا يشوبه تلون، وعزّة نفس لا تقرّ على الضيم"^(٢). وأيضاً حديثه عن معاناته عندما نعي إليه خبر من يحب.

(١) انظر حسين، طه، مقال في الحب، نشر في مجلة الكاتب المصري، مجلد ٢، عدد فبراير سنة ١٩٤٦.

(٢) انظر ابن حزم الاندلسي، طوق الحمامة، إحسان عباس، ص ٢٥٦.

ومن ذلك ما ذكره ابن حزم عن نشأته وطفولته، فقال: "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأنني ربيت في حورهن ونشأت بين أيديهن"^(١).

فالطوق يصور هنا جانباً من حياة ابن حزم، يتصل بطفولته ونشأته ومصادر ثقافته وعلى يد من تربى وتعلم.

دلالة العنوان (طوق الحمامة في الألفه والآلاف):

بدأ عنوان الكتاب بكلمة الطوق والذي يحمل معنى الدوام والجمال والزينة، فالطوق: حلي يجعل في العنق، وكل شيء استدار فهو طوق، تطوَّق الرَّحَى فالطوق ما استدار بالشيء والجمع أطواق^(٢).

فالباحثة ترى من وجهة نظرها أنه بما أن الطوق حلية وزينة تجمل لابسيتها، فكذلك هو الحب يحلي ويجمل أرواح العشاق ونفسياتهم، فالطوق والحب مبعث للجمال، فالعنوان يوحي بأن هذا الحب هو كالطوق في أعناق المحبين ملازم لهم لا يبرح قلوبهم فحالهم كحال الحمامة وما طوقت به، لا يمكنهم التخلي عن حبهم ونزعه عنوة من قلوبهم، كذلك الحمامة لا يمكنها إزالة طوقها.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، إحسان عباس، ص ١٦٦.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم، لسان العرب، المجلد العاشر، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص ٢٣١، مادة (طوق).

فالعنوان يحمل طاقة إيحائية، تفتح الباب للتأويل والتحليل، فالحماسة تمثل الكائن البريِّ الرقيق الذي يوحى بمشاعر التعاطف والسلام وهي لطالما كانت رسولاً للمحبين، كما أنها طائرٌ حرٌّ يرفض كل قيد^(١)، والطوق سمة جمالية وحصار من الألفة والاحتواء.

فالعنوان جاء مكوناً من عتبة رئيسية (طوق الحمامة) وعنوان شارح ومفصل أكثر (في الألفة والألف)، فالعنوان لم يكن مجرد زخرف أو زينة للنص إنما وسيلة نستشرف من خلاله عالم النص ومضمونه ويقلص المسافة بين النص والقارئ^(٢).

أبواب الرسالة:

قسم ابن حزم الكتاب إلى ثلاثين باباً: عشرة منها في أصول الحب واثنان عشر باباً في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة، وستة أبواب في الآفات الداخلة إلى الحب، وبابٌ في قبح المعصية والباب الأخير في فضل التعفف.

(١) منصور، آمال، تمثيلات المرأة في طوق الحمامة لابن حزم: مقارنة ثقافية في خطاب العشق، المؤتمر النقدي السابع عشر، جامعة جرش، ٢٠١٤، ص ٦.

(٢) د. فريبير، محمد، سلطة العشق وسطوة السحر، مجلة دراسات أندلسية، ٢٠١٢، عدد خاص، ص ١٠٣-١٠٨.

وأول هذه الأبواب يكرّس للبحث عن ماهية الحب "أوله هزلٌ وآخره جد، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة وليس بمنكر في الديانة ولا بمحذور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل"^(١).

ابتدأ ابن حزم حديثه عن الحب بتعريفه وبيان موقف الشرع منه، حيث بين أن القلوب بيد الله عز وجل يسيرها كيفما يشاء. ثم تحدث عن علامات الحب في الباب الثاني: "يقفوها الفطن ويهتدي إليها الذكي، منها إدمان النظر، ومنها الإقبال بالحديث والإنصات لحديثه إذ حدّث" إلى آخره من العلامات.

ثم باب من أحب في النوم، فهو عند ابن حزم من باب التمني وتخيل الفكر وحديث النفس وأضغاثها.

ثم باب من أحب بالوصف دون المعاينة فهو "بنيانٍ هارٍ على غير أسس"^(٢).
ثم باب من أحب من نظرة واحدة ثم باب من لا يحب إلا بالمطاوله وكثير المشاهدة.

ثم باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها.
ثم باب التعريض بالقول "إما بإنشاء شعرٍ، أو بإرسال مثل، أو تعمية بيت أو طرح لغز أو تسليط كلام"^(١).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ص ٩٠.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١١٧.

ثم باب الإشارة بالعين والذي يأتي بعد التعريض بالقول إذا وقع القبول والموافقة.
ثم باب المراسلة، ومنها المراسلة بالكتب وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف
الكتب.

ثم باب السفير، ويأتي إرسال السفير بعد حلول الثقة ويجب تخيره واستجادته.
ثم باب طي السر وهو الكتمان باللسان والتصنع بإظهار الصبر.
ثم باب الإذاعة وهو كشف غلبة الحب على الحياء.
ثم باب الطاعة وهو طاعة المحب لمحبيه وصرفه قصراً طباعه إلى طباع من
يحبه.

ثم باب المخالفة وفيها يتبع المحب شهوته ويبلغ شفاءه من محبيه.
ثم باب العادل، وذكر فيه آفات الحب وأولها العادل، والعذار أقسام:
العادل الصديق الذي هو بين الحض والنهي، والعادل الزاجر كثير الملامة.
ثم باب المساعد من الأخوان، وهو من الأسباب المتمناة في الحب وجود صديق
مخلص.

ثم باب الرقيب، وهو ثاني آفات الحب وهم أقسام: منهم رقيب مثقل الجلوس ورقيب
أحس من أمرهما بطرف ورقيب على المحبوب.
ثم باب الواشي وهو أيضاً من آفات الحب، إما يريد القطع بين المتحابين فقط وإما
يسعى للقطع بين متحابين ليفرد بالمحبوب ويستأثر به.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٣٤.

ثم باب الوصل وهو الصفاء الذي لا كدر فيه وأجمل معانيه المواعيد الذي يقسم إلى الوعد بالزيارة والآخر انتظار الوعد بالزيارة.

ثم باب الهجر، وهو أيضاً من آفات الحب التي تسبب الحزن والسقم.

ثم باب الوفاء، وهو من حميد الغرائز وكريم الشيم وفاضل الأخلاق في الحب.

ثم باب الغدر، وهو من ذميم الصفات ومكروهاها.

ثم باب البين، وهو إما بينٌ منع من اللقاء، أو بينٌ مدة يوقن بانصرامها والعودة.

ثم باب القنوع، فلا بد للمحب إذا حرم الوصل من القنوع بما يجد.

ثم باب الضنى، وهو السقم والنحول إما لقلّة الوصل أو البين أو الهجر.

ثم باب السلو، وهو إما أن يكون نسيان طبيعي أو سلوٌ طبيعي أو سلوٌ تطبعي،

وهو قهر النفس المسمى بالتصير والجلد، ويظهر نقيض ما يشعر به.

ثم باب الموت الذي يحدث نتيجة لتزايد أمر المحب سوءاً من الهجر والقهر والبين

والسقم.

ثم باب قبح المعصية ويجري الحديث فيه عن المحب الذي يتبع نفسه ويعصي عقله

ويتبع هواه.

وأخيراً باب فضل التعفف، وهو أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه وبيتعد عن

الفاحشة والمعصية.

الرب في طوق الحمامة:

إن ما يميز الكتاب أنه لم يتطرق للرب لإثارة الغرائز والشهوات، وإنما لتقديم النصح والعبر للمحبين، وتتوزع هذه النصائح بين أبوابه، فمثلاً في باب (من أحب في النوم) يرى أن هذا الرب لا فائدة فيه، لأنه يجلب الهم والسقم، فصاحبه يتعلق بأحبال من الوهم لا تأتي بأي فائدة فهي مضيعة للوقت.

ومن أبرز الملاحظات التي تظهر في الطوق، ما يتجلى به ابن حزم من آراء في الرب سبقتة: فجذور الرب وأسراره تمتد بعيد في الفكر الإنساني فمن قديم ما يذكر محاورة أفلاطون والمؤدبة^(١).

حوار المأدبة يدور حول موضوع الرب أو العشق على نحو غير حوارى في البداية، إذ يتوالى على الحديث في الموضوع خمسة من المتحادثين على صورة مقام اجتمعوا في بيت أحدهم، لكي لا يستسلموا لنوبة من الشرب، بعد الانتهاء من الطعام، تناوبوا الحديث واحداً بعد الآخر، وعرض كل واحد منهم وجهة نظره في الرب، فلما جاء دور سقراط انتقد الطريقة الخطابية التي عالجوا بها الموضوع، وتحول إلى طريقته المفضلة وهي الحوار المتنامي الذي يستحث فيه محاوره على الالتزام بحدود واضحة، فانتقل سقراط يقص حواراً جرى بينه وبين امرأة اسمها ديوتيميا عارفة في فنون الرب وعندما انتهى سقراط من عرض آراء تلك المرأة دخل الفيياوس مع جمع من السكارى، وكان دوره أن يبين ميزات سقراط، وخاصة في الرب، وبعد ذلك جاء جمع آخر من السكارى، وكثر

(١) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق احسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤.

الضحيج وانفضت الجلسة. هذا هو الإطار العام لحوار المأدبة، وهناك مجلس آخر وحوار آخر هو ما جرى في مجلس يحيى بن خالد البرمكي الذي كان يحضره عدداً من أهل البحث والنظر مثل أبي الهذيل العلاف وهشام بن الحكم والنظام وبشر بن المعتمد وثمامة بن أشرس، وآخرين فكان عدد المتحدثين ثلاثة عشر، تناول كل منهم العشق بحسب تصوره له بصورة موجزة.

وهناك نظرات راجت في المشرق قبل ابن حزم واطلع عليها ابن حزم فيما بعد، وكان أهمها ما قرأه في كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني، وهو ظاهري المذهب، فقد جاء في الزهرة "إن الله عز وجل خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة كرة، ثم قطعها فجعل في كل جسد نصفاً، وكل جسد لقي الجسد الذي منه النصف الذي قطع من النصف الذي معه، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقة طباعتهم". ما يستوقفنا في الأمر هو فكرة الأكر التي انقسمت فهذا القول يشير إلى حوار المأدبة الذي يعد مصدر هذه الفكرة^(١).

وفي هذا المقام لا بد من الإشارة إلى إخوان الصفا، الذين رأوا أن النفوس تتفاوت في المحبة بين نفس شهوانية و نفس حيوانية وثالثية ملكية وناطقة، وأن في جبلة النفوس

(١) انظر طوق الحمامة، تحقيق احسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٣-٣٥.
الأكر: فكرة فلسفية اطلع عليها ابن حزم في كتاب الزهرة للأصبهاني والتي تقوم على أن الارواح خلقت مدورة الشكل على هيئة كرة ثم قطعت فجعل في كل جسد نصفاً
(٢) النظره الأفلاطونية نسبه الى حوار المؤدبة لأفلاطون الذي كان معروفا في القرن الثالث الهجري.

محبة البقاء السرمدية، وتحدثوا عن تدرج النفس من المادي إلى الروحاني. والنفس الجزئية تتشاق للنفس الكلية، والنفس الكلية تشبه الباري تعبدا واشتياقا إليه، ولذلك كان المعشوق الأول هو الله الذي تتشاق إليه كل المخلوقات والموجودات.

وقد تحول إخوان الصفا إلى نظرة أفلاطونية واضحة (٢) فليس ببعيد أن تكون المأدبة هي مصدر تلك التصورات عن الحب ولكنها وأشباها تمثل المصدر الفلسفي الذي يوازي المصدر الطبي فابن داوود كان يرى أن الحب سبب العلة والسقم واحتراق القلب

أدب الاعتراف أو ما يمكن عده من السيرة الذاتية، فقد كشف عن بعض الجوانب النفسية والشخصية دون تحرج، ويظهر ذلك في باب (من استحسن صفة لم يستحسن غيرها)^(١) فهو يشير إلى تجرّبه ذاتيه تتمثل في أنه أحب في صباه جارية شقراء الشعر، فما استحسن بعدها سوداء الشعر، ويظهر جلياً أن ابن حزم كان صريحاً في كشف أحاسيسه وكل ما يخالجه نفسه من مشاعر، ويفرغها في الطوق، الذي جاء حافلاً بكل خلجات الحب ومشاعر الشوق كاشفاً عن تجاربه أولاً ثم تجارب غيره.

وفضلاً عما في الطوق من قضايا تتعلق بالحب وأحوال المحبين فإن الدارس يلمس معرفة ابن حزم بالفلسفة وأحوال النفس أو ما يسمى اليوم بالخيال، وكيف أن خيال المحب يضيء على المحبوب كل صفات الكمال والجمال، ويلاحظ ذلك من خلال قول

(١) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٣٠.

ابن حزم: "إن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها وعيناً يقيّمها نصب ضميره لا تمثيل في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها. فان وقعت المعاينة يوماً فحينئذ إذا يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية"^(١) "جاء ذلك في باب من أحب بالوصف، فالمحب يرسم بخياله، وفي عالم الوهم، أجمل الصور وأبهاها عن يحب، وقد تبقى وقد تتغير عندما تحصل المشاهدة.

المنهج الذي ألف على وفقه الكتاب:

جاء أسلوب ابن حزم مخالفاً لما هو متعارف عليه عند العرب من استطراد واسترسال وإطناب، فهو لم يأخذ بطريقة المتقدمين لاعتقاده بأن العصر الذي يعيش فيه مختلف بظروفه وأحواله عما سبقه، فيلاحظ اعتماده على الاستنباط والاستقراء (بعيداً عن الاستقصاء العلمي)^(٢) فجاءت رسائله محملة بالملاحظات النفسية كالتي سبق ذكرها، في باب الوصف، والحديث عن الخيال وكيف أن الصورة المرسومة قد تبقى وقد تزول، بعد حصول المشاهدة.

ويعج الطوق أيضاً بالخبرات المعيشية التي تلمس الواقع، وتعبّر عن شكوى ابن حزم منه، وهذا ما أكسب الطوق أهميته، وجعل دراسته مفيدة، لذا احتل الطوق مكانة، مرموقة في تاريخ الأدب العربي، فقيمة الطوق تكمن في تسليطه الضوء على حياة

(١) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١١٧.

(٢) عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٧٢، جزء ٢، ص ٢٢٧.

الأندلسيين وهمومهم، بشكل عام، وعلى جوانب من حياة ابن حزم نفسه، فضلاً عن تضمن الطوق شعر ابن حزم ونثره، وقد أوردتها بأسلوب يتسم بالبساطة والبعد عن التكلف والتصنع، وتجنب التعقيد.

وفي ما يأتي مثال لما في شعره من تصوير للمعاناة ومكابدة الشوق، من ذلك قوله في باب الضنى^(١):

يقولُ لي الطبيبُ بغيرِ علمٍ	تداوِ فأنتِ يا هذا عليلُ
ودائي ليس يدريه سوائي	وربَّ قادرٍ ملكٌ جليلُ
أأكتمه ويكشفهُ شهيقٌ	يلازمني وإطراقٌ طويلُ
ووجهٌ شاهداتُ الحزن فيه	وجسمٌ كالخيالِ ضنٍ نحيلُ

وتتجلى في هذه الأبيات بساطة الأسلوب وسلاسته وبعده عن التعقيد، فهي تشير إلى حاله وما يعاني من ألم البين وغياب الوصل، وتعكس ما آل إليه من حالة السقم والنحول.

فهذه الأعراض يكشفها الطبيب الحاذق المتمرس، فهي واقعة بسبب الحب ومعاناته. وإنعام النظر في هذا الشعر يظهر أنه مقطوعات قصيرة وليس قصائد مطولة، ومعنى ذلك أن صاحبه شاعر أبيات أو مقطوعات يقولها ليفصح عما يعترضه من مواقف

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٠.

آنية، وما يعتريه من مشاعر، فابن حزم اتخذ من الشعر، وسيله يثبت بها. جملة من المشاعر النفسية المتصلة بالشعور الإنساني^(١) لقد التزم ابن حزم في دراسته للحب جانب الحقيقة، فلا يركن إلى الخيال ولا يجنح للتزديد، فقد اقتصر على ما شاهد أو صح عنده بنقل الثقات لذلك يضرب صفحاً عن أخبار الأعراب والمتقدمين وبذلك يكون ابن حزم قد درس عاطفة الحب دون أن يلقي بالأخبار الحاشدة عن عشاق العرب وأقاويلهم، حتى جانب الشعر فهو يربطه بنفسه ولا يورد لغيره شيئاً إلا مضطراً. كما سيتضح في الفصل الثالث المتعلق بدراسة الطوق في ضوء رسائل العشق الأخرى.

(١) إدريس، نجمة عبد الله، مقال طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، خطاب في الأدب أم خطاب في الثقافة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ٢٠٠٧، العدد ١٢٥، ص ١٦.

الفصل الثاني:
الاستهلاكات السردية
في طوق الحمامة

الاستهلاكات السردية في طوق الحمامة: مفهوم السرد:

السرد: هو الكيفية أو الطريقة التي تروى بها القصة أو الرواية، عن طريق الراوي الذي يروي القصة للمروري له، وما تخضع له هذه القصة من مؤثرات بعضها متعلق بالقصة وبعضها الآخر متعلق بالراوي والمروري له.

فتعيين الطريقة التي تروى بها القصة يسمى سرداً، فالقصة الواحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة لذلك يعتمد على السرد في تمييز أنماط الحكى، فالقصة لا تتحدد فقط بمضمونها، ولكن أيضاً بالطريقة والشكل التي يقدم بها ذلك المضمون^(١).

من الاستهلاكات السردية التي تلاحظ أثناء النظر في نصوص الطوق اتكاء ابن حزم على عبارات (حدثني، وأخبرني)، و (حدّث وأخبر) التي تظهر في بداية سرده لروايات الطوق وحكاياته التي استقاها من التقاليد السردية لرواة الحديث النبوي، ورواة اللغة الذين سلكوا مسلكهم في تدوين الأخبار وإثبات الروايات، والتشدد في تقبل النصوص، فعبارات (حدثنا وأخبرنا، وحدثني وأخبرني)

(١) انظر حميد، لحميداني، بنية النص السردية من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت الحمراء، ط٣، ٢٠٠٠، ص ٤٥-٤٦.

كلها تدل على تاريخ من الواقع، لكنها انتقلت دلالاتها من قبيل تمثيل الواقع في ثوب الخيال وترسم صورة فنية إبداعية لا واقعية^(١).

هذا القول يذكر بكتاب (الذي ترجمه ابن المقفع والذي تظهر فيه عبارة (بلغني)، وهي أداة سردية تتصف بالإيحائية والتكثيف. فعبارة حدثني أو بلغني تحيل على شكل سردي مفتوح غير محدد يقبل الزيادة والنقصان، مما يعطي للقص مجالاً ليبدع في سرده.

ثم إن هذه الأفعال تحمل معنى الإنباء والإخبار وتوحي بان هذه الروايات كانت في معظمها تروى مشافهة، وبطريقة متواترة أي أنها مدونات ويظهر ذلك من خلال السند، وهو نسبة الخبر إلى صاحبه، عبر سلسلة الرواة، على نحو ما نجده في قول ابن حزم في باب الطاعة

"حدثني أبو دلف الوراق عن مسلمة بن احمد الفيلسوف المعروف بالمجريطي، أنه قال في المسجد الذي بشرقي مقبرة قريش بقرطبة الموازي لدار الوزير أبي عمر احمد بن محمد بن حدير رحمه الله، في هذا المسجد كان مريض مقدم بن الأصفر أيام حداثة عشقه بعجيب فتى الوزير أبي عمر، كان يقصد في الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب"^(٢)

(١) انظر مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٦٣-١٧٠.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألف، تحقيق إحسان عباس، ص ١٥٥-١٥٦.

هنا يظهر الإسناد بصيغة المبني للمعلوم، الذي هو أكثر إقناعاً بمصدقية ما يروى، من خلال ذكر سلسلة الرواة، اللاحق فالسابق فالأسبق في رواية الخبر، إضافة إلى إعطاء التفاصيل الدقيقة عن المسجد ومكانه من خلال عنصر الوصف.

ومن الأمثلة الأخرى التي يظهر فيها السند خبر نقله ابن حزم، في باب من أحب من نظرة واحدة قال: "حدثني أبو بكر محمد بن أحمد ابن اسحق، عن ثقة أخبره، وأظنه ابن الحذاء، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادي، كان مجتازاً عن باب العطارين فرأى جارية وأخذت بجماع قلبه.^(١)

فالإسناد أصبح تقليدياً وعادةً لصيقةً لاستهلالات ابن حزم السردية، كما هو الحال في الموروث الحكائي السردية.

وبهذا الإسناد يبعد ابن حزم نفسه عن المساءلة، أو الشك، ويقدم الخبر كما أخبره به الرواة، وعند ذكر أسماء من تخصصهم الرواية فهو بذلك ينفى أن يكون هذا الخبر يخصه أو يتعلق به.

وتحديداً عند حديثه عن نوع من أنواع العشق شاع في الأندلس، وبالرغم من رفض المجتمع والدين والعادات والقيم لهذا النوع من العشق، الذي نعت

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٢٠.

بالشنيع، فإن ابن حزم يستبشع ويستتكر ذلك الفعل فيقول: "أما فعل قوم لوط فشنيع شنيع"^(١).

فإن ابن حزم سلط الضوء على بعض الآفات التي أصيب بها المجتمع الأندلسي، وعبر عن موقفه إزاءها، وأفرد لها باباً تحدث فيه عن قبح المعصية، فكتاب الطوق، في هذا الموقف، يعتبر نوعاً من الأدب المكشوف، إذ عبر عن العلاقات بين الرجال والنساء، وعن العلاقات الأخرى حتى المرفوض منها، لكنه تناولها بأسلوب اقتصر على الاستشهاد والوصف الجامد، بعيداً عن الوصف الحسي.

ويتضح ذلك من خلال قصة رجل جليل عشق جارية ممنوعاً عنها حتى خرج يوماً في إحدى ضياعه مع بعض أهله وبينهم هذه الجارية، فأمرت السماء ولم يكن معهم أغطية، فجاء عمه ببعض الأغطية وأمر الجارية أن تحتمي معه تحت الغطاء! "فطن ما شئت من التمكن على أعين الملاء وهم لا يشعرون"^(٢).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٩٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

بهذا الحدث الذي أورده ابن حزم قدم أدبا مكشوفاً، كما يرى فاروق سعد^(١) في تحقيقه لطوق الحمامة، ويرى فاروق سعد أن هذا الأدب المكشوف قدم عن طريق الوصف الجامد بعيداً عن الوصف الحسي الذي يثير المشاعر ويعين على الباطل، فقدم ابن حزم الخبر بصورة تسترعي الخيال وبأسلوب مشوق لا يتنافى مع أخلاق الفقيه.

إن عبارتي (حدثني، وأخبرني) دالتان على الأنا، فهما تتيحان للشارد فرصة الحديث عن الذات ليعبر عن نفسه وعن مكنوناتها، فابن حزم عبر عما بداخله في أبواب الطوق، ففي باب الضنى مثلاً، سرد خبراً عن مروان بن يحيى، فقال: "حدثني جعفر مولى احمد بن محمد بن حدير: أن سبب اختلاط مروان ابن يحيى بن أحمد بن حدير وذهاب عقله: اعتلاله بجارية لأخيه، فمنعها وباعها لغيره"^(٢).

فقد عبّر ابن حزم بسرده لهذا الخبر، ما يعاينه العاشق من آلام البعد والبين، ومن تدهور حالته النفسية والجسدية، فاستخدم ابن حزم لعبارتي (حدثني، وأخبرني) يجعله ينطلق ويعبر عما في داخل نفسه من لوعة وحزن وأسى، تحت ظل حدثني.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق فاروق سعد، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، ١٩٩٦، ص ٢٦.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٢-٢٤٣.

ونخلص من ذلك إلى: "أن الاستهلال السردى إطارٌ لا غنى عنه^(١)، على حد قول عبد الله إبراهيم في بحثه البنية السردية للموروث الحكائي العربي، فهو يرى أنه ينظم عملية الرواية والتلقي معاً.

تعددية الضمائر: أولاً: ضمير الغائب

ومن خلال دراسة الطوق، من منظور سردي، يمكن للباحث أن يلحظ وجود شكل سردي آخر يتمثل في كثرة استعمال الضمائر في السرد وتعددتها، فقد ظهر في أثناء الدراسة أن ضمير الغائب (هو، هي) وضمير المتكلم (أنا، نحن، نا) وضمير المخاطب (أنت، أنتِ) هي الضمائر المستعملة في السرد، إلا أن ضمير الغائب هو الأكثر استعمالاً بين الضمائر ومن ذلك ما أورده ابن حزم في باب الوفاء في قوله: "ولعهدي برجل من صفوة إخواني قد علق بجارية فتأكد الودُ بينهما، ثم غدرت بعهدته ونقضت ودّه، وشاع خبرهما، فوجد لذلك وجداً شديداً^(٢).

ويلاحظ من خلال النص أن ضمير الغائب في الفعل (عَلِقَ) يعود على الغائب هو، وهما في بينهما تعود على الغائب، والفاعل في غدرت ضمير الغائب هي، ومثلهما

(١) إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، ١٩٩٢، ط٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٠٧.

فاعل (نقضته)، وفاعل شاع، وهما في خبرهما، كل هذه الضمائر تعود على غائب، وكل ما في الخبر مسند إلى ضمير الغائب، فهو الأكثر شيوعاً في الاستعمال بين الضمائر، لأنه وسيلة جيدة لأن يتوارى خلفها السارد ويعبر عما يشاء من أفكار وأيديولوجيات وآراء بقناع الغائب.

كما أن استخدام ضمير الغائب في السرد يفصل زمن الحكاية عن زمن السارد فهو خدعة سردية، وتقنية روائية تخدم الراوي، فاستفاد منها ابن حزم ليعبر عن زمنه، وعن حاله، بأسلوب الغائب ويتضح ذلك من خلاله خبر أورده في باب البين قال: "وأعرف من أتى ليودع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعة وتردد في الموضع الذي كان فيه، وانصرف كئيباً متغيّر اللون كاسف البال"^(١) نلاحظ في هذا الخبر تكتيفاً لضمير الغائب من خلال الأفعال المجهولة الفاعل، أي فاعلها ضمير الغائب هو فنلاحظ أن كلمة (ليودع) فاعلها ضمير الغائب هو و (محبوبه) هو، (فوجده) هو، (فات) هو، (فوقف) هو، (تردد) هو، (كان) هو، (انصرف) هو، (فتغير اللون) هو، وكاسف اللون أوصاف تعود على الغائب هو.

الخبر كله غياب في غياب، فغياب المحبوب ورحيله تسبب في غياب راحة المحبوب وتغير حاله ولونه، فكثرة اللجوء إلى ضمير الغائب وتكتيفه في النص يعد معادلاً موضوعياً لنفسية ابن حزم المغيبة عن الواقع التي تعيش حالة نفسية سيئة نتيجة غياب

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٢.

المحبيب، فجاءت عبارات الغياب انعكاساً لما يعانیه من غياب المحبوب وغرته عنه فالزمن هو زمن ابن حزم يسرده بضمير الغائب. وبذلك يوحي للقارئ بتصديق ما يجري من أحداث عبر نسيج لغوي يدخل فيه الواقع بالخيال.

كما يلاحظ الباحث أن ابن حزم استخدم ضمير الغائب بوصفة أداة سردية في كتابه، ويتضح ذلك في باب الوصل في قوله: "حدثتني امرأة أثقُ بها أنها شاهدت فتىً وجارية كان يجد كل منهما بصاحبه فضل وجد، وقد اجتمعا في مكان على طرب، وفي يد الفتى سكين يقطع بها الفاكهة، فجرها جراً زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة، فصرّفت يدها وخرقتها، أخرجت منها فضلة وشدت إبهامه^(١).

نجد في هذا الخبر أن ضمير الغائب (هو، هي) يهيمنان على السرد فالمرأة هي التي شاهدت ما حدث وروته لابن حزم، فاستخدام ابن حزم للضمير الغائب يبعد الظن عن أن يكون هذا الموقف قد حصل مع ابن حزم نفسه.

إن ورود ضمير الغائب متكرراً في سرد ابن حزم يشكل مرآة صادقة لغياب ذهن العاشقين، كما يظهر في الحكاية انشغال كل من المتحابين بالآخر، لدرجة أن العاشق

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٧.

ذهل فغفل عن السكين وجرح إبهامه، أما هي فلم تأبه بغاللتها المقصبة الثمينة، فخرقتها وأخرجت منها ما يلف بها إبهام حبيبها.

ثم وفي استخدام ضمير الغائب، في هذه القصة "تغيب لعقبة العادات والتقاليد"^(١) كما ترى مي يوسف في كتابها جماليات السرديات التراثية، فضمير الغائب يعطي السارد فسحةً واسعةً ليحكىك ويحكك ما يشاء من الأحداث، فهو وسيلة للتحدث بحرية أكثر وبشكل غير مباشر عن الحالة النفسية وعن الصراع الداخلي.

فإنعام النظر في طوق الحمامة وأخبارها يُظهر أن ضمير الغائب خيمَ على أسلوب ابن حزم في السرد وأبعد نفسه عن اثم الكذب فهو لم يعد غير سارد، يسرد ما سمعه أو علمه من حكايات وأخبار عن غيره^(٢).

إن ابن حزم باستعماله لضمير الغائب، فصل نفسه عن بعض ما ورد في الطوق من روايات قد تكون حصلت معه هو، ولكنها جاءت بصيغة الغائب، ومن ثم فإن المتلقي يعتقد بأن ما يحكيه ابن حزم (السارد) قد حصل بالفعل، وأنه مجرد وسيط بين المتلقي والقصة المحكية، ويلاحظ أيضاً أن استعمال ضمير الغائب في الطوق جاء غالباً مرتبطاً بالفعل الماضي، ويلاحظ ذلك في باب المراسلة، حيث قال ابن حزم: "ولقد رأيت كتاباً

(١) يوسف، مي أحمد ، جماليات السرديات التراثية، دراسات تطبيقية في السرد العربي القديم، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١١، ص ٥٣.

(٢) مرتاض، عبد الملك ، في نظرية الرواية، ص ١٧٨.

لمحب إلى محبوبته، وقد قطع في يده بسكين له، فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع" (١).

هنا جاء استخدام ضمير الغائب (هو) مرتبطاً بالفعل الماضي، فقال (قطع) وهو فعل ماضٍ فاعله ضمير غائب تقديره هو، و(استمد) أيضاً فعل ماضٍ فاعله ضمير الغائب (هو)، وكذلك (كتب) فاعله (هو).

فقد أتى ابن حزم بصيغة الماضي مرتبطة بضمير الغائب بغية التأثير في السامع أو القارئ ويوقر في ذهنه جدية ما يسرد حتى ولو كان ما يسرده مادة حكاية (٢).

ثانياً: ضمير المتكلم:

نلاحظ أيضاً ظهور ضمير المتكلم في الطوق، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية السردية بعد ضمير الغائب، ويتضح أن ابن حزم لا يتردد في استعمال ضمير المتكلم، في حديثه عن نفسه، على نحو ما يظهر في قوله، في باب البين: "وعني أخبرك أنني أحد من دُهيّ بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة، وذلك أنني كنت أشدّ الناس كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي، كانت مما خلا اسمها نعم" (٣).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٤٠.

(٢) يوسف، مي أحمد، جماليات السرديات التراثية، ص ٥٢.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٤.

ومن ذلك أيضاً قوله في باب السلو: "وعني أخبرك أنني جبلتُ على طبعين لا يهنأني معهما عيشُ أبدأ، وإنِّي لأبرم بحياتي باجتماعهما وأود التغييب من نفسي أحياناً"^(١).

ويظهر ضمير المتكلم في قوله: "كنت أشد الناس كلفاً" فالتاء هنا تاء المتكلم، وهو ابن حزم، فقد عزا السرد إلى نفسه وحاول إذابته في زمنه.

وكذلك في قوله: "جبلتُ، يهنأني، وإنِّي لأبرم، وأود، كلها تشتمل على ضمير المتكلم الذي وظّفه ابن حزم في حكاياته، لتصبح هذه الحكايات مندمجة مع روحه معبرة عنه.

ولا شك في أن ضمير المتكلم يقرب المتلقي من ابن حزم (السارد) ويشدّ انتباهه ويُلاحظ ذلك في باب الهجر في قوله:

"وقد عرض لي في الصبا هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة، وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود فلما كثر ذلك قلت على سبيل المزاح شعراً بديهياً"^(٢). من ذلك قوله:

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٩٤.

تذكرت وُدّاً للحبيب كأنه
لخولة أطلال ببرقة ثمهد
وعهدي بعهدٍ كان لي منه ثابتٍ
يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لا موقناً برجوعه
ولا آيساً أبكي وأبكي إلى الغدِ
إلى أن أطل الناس عذلي وأكثروا
يقولون لا تهلك أسيّ وتجدد^(١)

نلاحظ استعمال ابن حزم لضمير المتكلم في حديثه عن ذاته وتجربته التي مرَّ بها من هجر المحبوب وبعده عنه، ويظهر ذلك في قوله: (عرض لي) التي ظهر فيها ضمير المتكلم، وكذلك (كنت آلف)، و (قلت). كما يظهر ضمير المتكلم في الأبيات الشعرية التي ارتجلها بديهية في قوله (تذكرت)، و (عهدي) المضافة إلى ضمير المتكلم (الياء) وكذلك (وقفت) التي يظهر فيها ضمير المتكلم.

فضمير المتكلم جعل ابن حزم هو المتكلم وهو صاحب الشخصية التي تنهض عليها الحكاية، وهذا ما يجعل الطوق يُعد لدى بعض الدارسين من باب السيرة الذاتية، على نحو ما يرى عبد الملك مرتاض في كتابه (في نظرية الرواية) أنها "شكل سردي ذاتي ذو صلة وثقى بالواقع التاريخي"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٤.

(٢) مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، ص ١٨٧.

فلا بد من ظهور ضمير المتكلم الذي يتولد عند الحديث عن أحداث حياة صاحب السيرة.

ومن حديث ابن حزم عن سيرته الذاتية ما أورده في باب السلو حيث قال: "فلعهدي بمصطنع كان في دارنا.... تجمعت فيه النساء ونساء فتياننا، ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ويلطف محله.....، فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب التي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره"^(١).

يظهر من هذا الخبر أن كتاب طوق الحمامة ترجم جانباً كبيراً من حياة ابن حزم وقدم صورة جميلة لأدب الاعتراف وعبر عن نفسية ابن حزم وشخصيته من خلال ضمير المتكلم"^(٢).

ونلاحظ أمراً آخر جديراً بالاهتمام هو أن استعمال ضمير المتكلم يأتي منسجماً مع الحديث عن الذات وهمومها ومنسجماً مع الحديث عن السيرة الذاتية التي عرفها عبد الله إبراهيم في كتابه (السردية العربية الحديثة) بانها "الكشف

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق فاروق سعد، مطبعة دار الحياة، ١٩٩٦، ص ٢٠.

الذاتي لجانب من جوانب الحياة الشخصية بأسلوب مباشر في التعبير عن الذات تجاربها الروحية، والفكرية"^(١).

فلقد بدت على أسلوب ابن حزم، من خلال سرد أخباره وحكاياته ملامح من سيرته الذاتية، ففي طوق الحمامة عرض لبعض مذكراته ويوميته التي تتيح لنا المجال للتعرف على ملامح شخصيته وحياته الخاصة، ومن جانب هذه السيرة، يقول: وإني ألفت في أيام صباي ألفة المحبة جارية نشأت في دارنا، وكانت بنت ستة عشر عاماً، وكانت غاية في الحسن...."^(٢) أطال ابن حزم في وصفها ومدحها لشدة حبه لها.

وفي هذا الأسلوب شيء غير قليل من تقنية الاسترجاع، إن هذه المذكرات تعرف القراء على أسرار ابن حزم الشخصية وماضيه، وتربطنا بتقنية التذكير، "التي تعود من خلالها الشخصية إلى الوراء لتذكر نقاط معينة تذكره بأحداث ومواقف حصلت معه في الماضي"^(٣).

هذه العودة، كما فعل ابن حزم بعودته إلى حبه وصباه، جمدت الأحداث لكنها أمدتها بالحيوية وأثارت فضول المتلقي لمعرفة المزيد.

(١) إبراهيم، عبد الله، السردية العربية الحديثة، ص ١٤٣.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٩.

(٣) المرزوق، جهاد بناء الخطاب الروائي، أحمد الزعبي، ص ١٥٥.

ومن الأمثلة التي يبني فيها الخطاب السردى على الاسترجاع في طوق الحمامة، خبر رواه ابن حزم عن نفسه، تحدث فيه عن مصابه ومبتلاه، من خلال سرده الاستنكاري، عندما فقد من أحب، وعاد بحديثه إلى الوراء واسترجع ماضيه، فقال "كنت أشدَّ الناسَ كلفاً وأعظمهم حباً بجارية لي، كانت فيما خلا اسمها نعم. وكانت أمنية المتمني، سني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن..... فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد من ثيابي"^(١).

فهنا استخدم ابن حزم تقنية الاسترجاع أو السرد الاستنكاري، فبعد أن فجع بوفاة من يحب، عاد بذاكرته إلى الوراء (الماضي) واستذكر أحداثاً سابقة لوفاة محبوبته، فقدم هذا الاسترجاع إضاءة لماضي الشخصيات، وعرض لجوانب من حياتها، ما خلق لدى القارئ حافزاً لمتابعة القراءة والتلقي، إذ لا يكتمل النص إلا في نهايته.

فابن حزم، من خلال الاستنكار والاسترجاع، اختزل زمن الحكاية فجاء ملتحمًا بالنص، مترابطاً مع شعور ابن حزم وحالته النفسية، فتقنية الاسترجاع أضافت لونا تعبيرياً جديداً في طوق الحمامة وأعطته مذاقاً عاطفياً جعل المتلقي

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

يتعاطف أكثر مع ابن حزم ومشاعره^(١) فقد استحضر بهذه التقنية ذكرياته وهمومه وهموم الآخرين.

ثالثاً: ضمير المخاطب:

أما فيما يتعلق بضمير المخاطب فهو أقل الضمائر وروداً في طوق الحمامة، ومما يظهر فيه استعمال ضمير المخاطب، وما جاء نقله ابن حزم عن بعض الإخوان، في باب الوصل حيث قال: "حدثني بعض إخواني أنه كان في بعض المنازل المصاقبه له هوى، وكان في المنزلين موضع مطّلع له من إحداهما إلى الآخر..... فتسلم عليه ويدها ملفوفة في قميصها، فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك فأجابته: أنه ربما أحسّ من أمرنا شيء، فوقف لك غيري فسلم عليك، فرددت عليه فصحّ الظن فهذه علامة بيني وبينك"^(٢).

فيظهر استعمال ضمير المخاطب في جملة (فوقف لك) والمخاطب هنا أنت وأيضاً (سلم عليك) والمخاطب أنت، وكذلك جملة (رددت) محدثاً المخاطب وأيضاً (بينني وبينك) فالكاف ضمير المخاطب، في هذه الحادثة يُلاحظ تكثيف في إيراد الضمائر، فقد اجتمع ضمير الغائب في جملة (فتسلم عليه ويدها ملفوفة) وضمير المتكلم في (بينني).

المخاطب (بينك) كل هذه الضمائر اجتمعت في موقف واحد صورته جمل قصار

متتابعة عبر الخطاب السردى فقدمت وظيفة سردية في حكايات طوق الحمامة.

(١) قاسم، سيزا طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

كما أورد ابن حزم خبراً آخر ورد فيه استعمال ضمير المخاطب في باب فضل التعفف؛ قال: "حدثتني امرأة أثق بها أنها علقها فتى مثلها في الحسن وعلقته وشاع القول عليهما، فاجتمعا يوماً خاليين فقال: هلمي نحقق ما يقال فينا. فقالت: لا والله لا كان هذا أبداً"^(١).

في هذا الخبر يلاحظ وجود ضمير المخاطب في كلمة (هلمي) وهو ياء المخاطبة، فهذا الضمير قدم وظيفة سردية عبر الحوار الذي دار بين الفتى والمرأة.

وهناك أيضاً خبر آخر أورده ابن حزم في باب التعريض في القول، يظهر فيه استعمال ضمير المخاطب في قوله: "وأنا أعرف فتناً وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل، فقالت: والله لأشكونك في الملاء علانية ولأفضحك فضيحة مستورة"^(٢).

ورد ضمير المخاطب في قول الجارية (والله لأشكونك) في كاف الخطاب وكذلك في (لأفضحك) أيضاً في كاف الخطاب الذي يعود على الفتى.

نجد في هذين الخبرين صورة جميلة للمرأة الأندلسية العفيفة الطاهرة رسمها لها ابن حزم في طوق الحمامة التي لا ترضى إلا بما يرضي الله.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٩٧.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٣٥.

فالمتمأل في طوق الحمامة والدارس له يلاحظ إن استخدام ضمير المخاطب جاء قليلاً في الطوق متناسباً مع سرد قصصه وحكاياته.

فإنعام النظر في حكايات طوق الحمامة وأخبارها يظهر أن ضمير الغائب قد تسيّد أسلوب ابن حزم في السرد، الذي يقودنا من خلاله إلى أسلوب آخر، وهو:

تنكير الشخصية:

وهذا الأسلوب يمكن السارد من تطوير الأحداث، ويعطيه حرية في القص، ليضفي على الشخصية بعداً قصصياً يحفز على نسيج المزيد من الأحداث والأفعال حول هذه الشخصية ولاحظنا ذلك في الخبرين السابقين الذين وردا عن امرأة علفت بفتى مثلها في الحسن والخبر الآخر عن فتى وجارية كانا يتحابان فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل.

نلاحظ في الخبرين أنه لم يرد ذكر أسماء شخصيات القصة ولا على سبيل التلميح بشيء عنهما، وذلك بقصد عدم التشهير بهما بين الناس وبهدف كتمان سرهما وهناك خبر آخر يظهر فيه تنكير الشخصية، أورده ابن حزم في باب (قبح المعصية) قال: وإنني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوا له، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده، فمضى داعيه إلى منزله فانتظره حتى طال عليه التريص فلم يأتته^(١).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٦.

يلاحظ في هذا الخبر أن ابن حزم قد غيب شخصياته فجعل الحكاية أكثر إقناعاً
لخيال السامع وأبعد نفسه عن المساس بأعراض الناس أو الإساءة إليهم.

وفي موضع آخر من حكايات الطوق، وتحديداً في باب (من لا يحب الا مع
المطاوله) نجد ابن حزم يقول: "واني لأعرف فتى من أهل الجدة والحسب والأدب كان
يبتاع جاريه وهي سالمة الصدر من حبه، وأكثر من ذلك كارهةً له لقله حلاوة شمائل
كانت فيه، وقطوب دائم كان لا يفارقه لا سيما مع النساء"^(١).

يلحظ هنا أن ابن حزم يوسع من نطاق حريته في التعبير، فيكثر من وصف ما
كان يجري بين المتحابين، دون خوفٍ أو مساءلة، فهو بهذا الأسلوب ومن خلال تنكير
الشخصية استطاع أن يعبر عما في نفسه من مشاعر، ولكن بأسلوب غير مباشر فضلاً
عن حديثه عن مشاعر الآخرين، وقد لجأ ابن حزم أيضاً إلى **تنكير الشخصيات** في قوله:
"ولقد أخبرني ثقة من إخواني من أهل الفقه أنه أحب جارية نبيلة أديبة ذات جمال، قال:
"فعرضتُ لها فنفرت، ثم عرضتُ فأبت، فل يزل الأمر يطول وحبها يزيد، وهي لا تطيع
البتة، إلى أن حملني فرط حبي لها، إني متى نلت منها مرادي أتوب إلى الله، حتى أذعنت
بعد شماسٍ ونفار، فقلت له: أبا فلان، وفيت بعهدك؟ فقال أي: والله فضحكت"^(٢).

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٠.

فهذه الحكاية، وبهذه التقنية من التتكير وطى بعض الأوصاف والتعليقات، أتاحت للقارئ والسامع فسحاً واسعةً من الخيال، فابن حزم لم يذكر أسماء الشخصيات وحافظ على العادات والتقاليد، ولم يشهر بالمتحابين، ولم يفضح أمرهم حين أشار من بعيد إلى ما جرى.

الحوار، يقع في مقدمة تقنيات السرد:

والحوار: "حديث يجري بين شخصين أو أكثر، كأن يكون حواراً خارجياً ويسمى الديالوج، أو أن يكون حواراً مع النفس وهو حوار داخلي^(١). ويسمى المونولوج^(٢).

لقد تضمن (طوق الحمامة) قصصاً وأمثلة كثيرة دار فيها الحوار، بكل أنواعه بين شخوص الحكايات، ومن ذلك ما جاء من قصة أوردها ابن حزم في باب (المساعد من الإخوان) قال: "واني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله ناسكة مقبلة على الخير، وقد ظفرت بكتابٍ لفتى إلى جارية كان يكلف بها، وكانت في غير ملكها، فعرفته الأمر، فرام الإنكار، فلم يتهدأ له ذلك، فقالت له: مالك؟ ومن ذا عصم؟ فلا تبالي بهذا فوالله لا أطلعت على سركما أحداً، ولو أمكنني أن ابتاعها لك لفعلت^(٣).

(١) المرزبوق، جهاد، بناء الخطاب الروائي عند أحمد الزعبي، دار الكرمل للنشر، ٢٠٠٥، ط١، ص ١٣٨.

(٢) المونولوج: حوار النفس الذي يعتمد على الإيحاء، والرمز والتلميح.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٥.

في هذه القصة يظهر الحوار المباشر وهو أكثر أنواع الحوار تداولاً في الأدب القصصي إذ قام ابن حزم بنقل كلام المتحاورين، متقيداً بحرفيته وصيغته، هذا النوع من الحوار نتج عن التغيير الذي طرأ على دور الراوي في القص، حيث كان يمارس مهمة سردية مهيمنة تعلم عن الحدث قبل وقوعه، ويقص علينا ما يراه من زاويته.

الحوار الداخلي أو المونولوج:

ومن القصص التي تضمنت حواراً أيضاً ما روي عن رجلٍ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إني استهتر بثلاث: الخمر والزنا والكذب. فمرني أيها اترك، فقال: اترك الكذب، فذهب عنه. ثم أراد الزنا ففكر فقال: أتى رسول الله فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت: نعم، حدّني، وإن قلت: لا، نقضت العهد، فتركه ثم كذلك في الخمر^(١).

لقد ظهر الحوار في هذه القصة وقد صيغ بزمن الفعل الماضي، واستخدم فيه ضمير الغائب، ونكّر ابن حزم الشخصية، ولم يذكر اسمها، وهو الذي روى حديث الشخصية عن طريق الحوار، فادى الحوار بذلك وظيفة سردية دفعت بالأحداث إلى الأمام وبنّت الحيوية والتلقائية في المواقف، ويظهر ذلك عندما أراد الرجل الزنا فتذكر وعده ونصيحة الرسول إليه فعمل بها.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٧٥.

"فالحوار كشف عن طوايا المتحاورين"^(١) وما يجول في نفوسهم ويعبر عن لغتهم والمستوى العقلي والثقافي والاجتماعي لهم.

والدارسة تتفق مع الدكتورة مي احمد يوسف فيما جاء في كتابها (جماليات السرديات التراثية) فيما يتعلق بالحوار وهو أن السارد هو المسيطر على الزمن والحيز معاً المتمكن من مكونات السرد فالحكاية هنا جاءت تعبر عن نوع آخر من أنواع الحوار وهو الحوار الداخلي أو المونولوج ويظهر ذلك في عبارة "ثم أراد الزنا ففكر فقال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألني: أزنيت؟ فإن قلت: نعم، حدّني، وإن قلت: لا، نقضت العهد"^(٢).

يلاحظ أن ابن حزم، في نقله لهذه القصة، كان على وعي بمفهوم الحوار الداخلي - أوالمونولوج الذي هو سبيل من المشاعر والأفكار، تجري في ذهن الشخصية وأعماقها دون تنظيم، أو تسلسل واعٍ ولا تخضع لمنطق الزمان أو المكان تفرضها عليه اللحظة الشعورية التي يعبر عنها من خلال هذا الحوار الداخلي.

(١) يوسف، مي أحمد جماليات السرديات التراثية، دراسات تطبيقية في السرد العربي، دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٥٨.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٧٥.

فقد وفق ابن حزم في استخدام الحوار الداخلي في نقل مشاعر الشخصية وأفكارها بلحظاتها الشعورية المتدفقة وطوع الحوار للتعبير عما في داخله فالمونولوج حديث الذات للذات.

هذا الأسلوب أتاح لأبن حزم كما يرى جهاد المرزايق في كتابه بناء الخطاب الروائي فرصة الربط بين الماضي والحاضر وينتقل من مكان إلى آخر ومن فكرة الوصل بين الجارية والفتى إلى فكرة الغدر بهما^(١).

لغة الحوار في طوق الحمامة:

إن الدارس للطوق يلاحظ استثمار ابن حزم لتقنية الحوار في ثنايا متن الحكايات. ويمثل حوار اللغة المعترضة التي تقع وسطاً بين المناجاة (المونولوج الداخلي) واللغة السردية على حد قول عبد الملك مرتضى في كتابه في نظرية الكتابة^(٢)، إذ يجري الحوار بين شخصين أو أكثر داخل العمل الأدبي، ويظهر الحوار في حكايات طوق الحمامة ومنه ما ورد في باب (من أحب من نظرة واحدة)، عن الشاعر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي، عندما اجتاز باب العطارين وصادف هناك جارية وجعل يتبعها فقالت له: "مالك تمشي ورائي؟ فأخبرها بعظيم بليته بها. فقالت له: دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي، فقال: إني

(١) انظر المرزايق، جهاد، بناء الخطاب الروائي، ص ١٤٣.

(٢) مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، ص ١٣٤.

اقتنع بالنظر، فقالت له: ذلك مباحاً لك، فقال لها: أحرّة أم مملوكة؟ قالت:
مملوكة...." الخ^(١).

إن الحوار في هذه الحادثة قدم بعداً جديداً للمتلقى، فقد عمّق معرفته
بالشخصيات وبأفكارها، فالشخصيات هي التي عبرت عن نفسها والحوار ترك
الباب مفتوحاً للمتلقى يستوحي ما يشاء من الرؤى والأفكار فقد استغنى ابن حزم
بالحوار عن السرد والوصف لتقديم حكايته.

الاسترجاع أو السرد الاستذكاري:

ومن التقنيات الأخرى التي لجأ إليها ابن حزم في سرده، الاسترجاع أو السرد
الاستذكاري.

"وهو كل عودة للماضي يحيلنا من خلالها الراوي إلى نقطة وأحداث سابقة للنقطة
التي وصلتها القصة أو الرواية"^(٢).

ومن الأمثلة التي وظف فيها الاسترجاع في الطوق، خبر رواه ابن حزم عن نفسه،
تحدث فيه عن مصابه ومبتلاه، عندما فقد من أحب، وعاد بحديثه إلى الوراء واسترجع
ماضيه، فقال في باب الوصل "لقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجلي
خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً عن مرادي، وغير شافٍ وجدي ولا

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٢١.

(٢) المرازيق، جهاد، بناء الخطاب الروائي عند أحمد الزعبي، ص ١٥٥.

قاضي أقل لبانة من لباناتي، ووجدتني كلما ازددت دنوا ازددت ولوعاً، وقدحت زناد الشوق
نار الوجد بين ضلوعي"^(١).

في هذه الحادثة بدأ ابن حزم حديثه باسترجاع واستنكار ماضية، فعاد بذاكرته إلى
الوراء (الماضي) واستذكر أحداث سابقة، فقدم هذا الاسترجاع إضاءة لماضي
الشخصيات وعرض لجوانب من حياتها وعبر ابن حزم فيها عن أفكاره ومبادئه فهو يرى
أنه ما روي قط من ماء الوصل ولا زاده إلا ظمأً، هذه الذكريات خلقت لدى القارئ حافزاً
لمتابعة القراءة والتلقي إذ لا يكتمل النص إلا في نهايته.

فابن حزم من خلال الاستنكار والاسترجاع اختزل زمن الحكاية وجاء ملتحمًا
بالنص، مترابطاً مع شعور ابن حزم وحالته النفسية، فتقنية الاسترجاع أضافت لونا تعبيرياً
جديداً في الطوق وأعطته مذاقاً عاطفياً^(٢)، جعل المتلقي يتعاطف أكثر مع ابن حزم
ومشاعره التي استرجعها عند حديثه عن همومه وهموم الآخرين.

كما يتجلى استخدام ابن حزم لتقنيته الاستنكار والاسترجاع عند حديثه عن طفولته
ونشأته، لقد عاد ابن حزم بذاكرته إلى طفولته ونشأته التي كانت بين جوارى القصر، فابن
حزم يرجع الفضل لهن في تربيته وتنشأته وتعليمه القرآن والشعر والخط.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق الدكتور طاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧،
ص ٨٢.

(٢) قاسم، سيزا، بناء الرواية، ص ٤٣.

فقد ربط ابن حزم من خلال الاستذكار ماضيه بحاضره، فماضي ابن حزم ما زال يجري في أعماقه وذهنه، لم ينفصل عن حاضره ومشاعره تتقلب بين ماضيه وحاضره. فهنا نلمح استخدام أسلوب المذكرات عند حديثه عن نشأته وكذلك شبابه، أي سيرته الذاتية.

فبهذا الأسلوب شيء غير قليل من تقنية الاسترجاع من خلال أسلوب المذكرات التي تعرف القراء على أسرار ابن حزم الشخصية والأحداث والمواقف التي مر بها والتي أمدت طوق الحماسة بالحيوية وأثارت فضول المتلقي وأغرته بالمتابعة. لقد لاحظت الباحثة أن هذه الأشكال السردية هي الأكثر بروزاً في الطوق من باقي الأشكال الأخرى فهناك أيضاً الحلم أو أحلام اليقظة التي ظهرت في باب (من أحب في النوم) في خبر أورده عن أبي السريّ انه قال: رأيت نومي جاريةً فاستيقظت وقد ذهب قلبي فيها وهمت بها^(١).

فهذه التقنية موجودة في الطوق لكنها لم تبرز كغيرها من التقنيات.

(١) انظر ابن حزم الأندلسي، طوق الحماسة في الألفه والألاف، تحقيق احسان عباس، ص ١١٥

العلاقة بين الوصف والسرد في طوق الحمامة:

الوصف: يعني ذكر أحوال الشيء وهيئاته التي تتجلى فيه، "الوصف

أسلوب إنشائي يتناول ذكر الأشياء في مظهرها الحسي وتقديمها للعين"^(١).

ويعد الوصف من العناصر الأساسية التي اعتمد عليها ابن حزم في

سرده، وذلك باستخدامه وصفاً تعبيرياً، يتناول الإحساس الذي تثيره الأشياء في

نفس المتلقي.

ويلاحظ أن ابن حزم لجأ إلى الإيحاء والتلميح لا الاستقصاء والتفصيل

من خلال الصور السردية، ومثال ذلك نجده في قوله في باب البين: "رأى دارنا

وقد أمحت رسومها وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها وغيرها البلى وصارت

صحارى مجدبة بعد العمران... فأبكى عيني وأوجع قلبي"^(٢).

إن وصف ابن حزم للمكان جاء ملتحماً بالسرد وعلى هيئته صور سردية

وفي الوقت نفسه جاء وصفه معبراً عن وقع الأحداث وآثارها في نفسيته،

فالوصف بهذه الطريقة يكون بالإيحاء والتلميح فلم يذكر ابن حزم ما كان بدورهم

من أشياء وأثاث، وإنما ذكر ما لهذه الدور من أثر في نفسه.

(١) قاسم، سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة لنجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤، ص ٧٩.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٢٧-٢٢٨.

فهذا المقطع الوصفي المعبر عن أشياء ساكنة، وهي الديار وما آلت إليه بعد الرحيل، يعد وصفاً تعبيرياً، عبّر عن وقع هذا الدمار والخراب والبين في نفس ابن حزم، فالوصف هنا نهض بمهمة وظيفية فنية، فتجاوز تمثيل الموجودات والأشياء والديار الخاوية إلى مستوى أعمق من الرمزية والدلالة^(١).

وفي حادثة أخرى، ذكرها ابن حزم يظهر فيها الوصف متداخلاً مع السرد، وذلك في وصفه لجارية نشأت معه في الصبا، فغاب عنها أعواماً كثيرة، وعندما رآها صدفةً في بيت امرأة من معارفه قال: "وجدتها وقد جرى على وجهها ماء الشبَاب ففاض وانساب، وتفجرت عليها ينابيع الملامة فتَرَدَّت وتَحِيرَتْ، وطلعت في سماء وجهها نجوم الحُسن فأشرقَت وتوقدت"^(٢).

فهذا النص تسيطر عليه الصورة السردية، التي تداخل وصفها بسردها، فقد عرضت الأشياء متحركة من خلال وجود الأفعال كما ظهر تفوق ابن حزم في وصفه لجمال الجارية، باستخدامه الانزياحات، إذ جعل نضارة وجهها وجماله وشبابه كالنهر الذي يجري ويفيض لغزارته، وجعل ملاحظتها لشدها كالينبوع الذي تفجر لغزارته وكثرة مائه، وجعل صفاء وجهها كصفاء السماء التي تظهر فيها النجوم المتألئة.

(١) قاسم، سيزا، بناء الرواية، ص ٨٢.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٣.

فالوصف هنا ليس وصفاً جغرافياً أو مكانياً يُصوّر فيه النهر أو السماء أو الينابيع، وإنما هو وصف مجازي يكثف المعنى فيه إلى أعلى درجات التكثيف، وتوظف البلاغة في وصفه أجمل توظيف.

جاء الوصف خادماً للسرد، فقدم وظيفة إيهامية^(١) كما ترى سيزا قاسم في كتابها بناء الرواية، إذ أدخل العالم الخارجي بتفاصيله (النهر، الينابيع والسماء) في عالم الحكاية التخيلي، فأشعر القارئ بأنه يعيش في عالم الواقع لا الخيال، وخلق انطباعاً بالحقيقة.

ومن أساليب الوصف التي استخدمها ابن حزم في طوق الحمامة أسلوب الوصف التصنيفي^(٢)، الذي يعمد فيه إلى الاستقصاء وذكر التفاصيل، ويظهر ذلك من خلال وصفه للقصة التي كانت في دارهم المطلّة على بستان الدار، وذلك في باب (السلو)، عندما تحدث عن لقائه بمحبوبته (نعم)، في وليمة أو حفل كان في داره، وقد اجتمعت النساء والخادمت وتنقلن في أركان البيت وصولاً إلى القصة، التي سردها واصفاً: "تنقلن إلى قسبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار، ويطلّغ منها على جميع قرطبة وفحومها، مفتحة الأبواب"^(٣).

(١) قاسم، سيزا بناء الرواية، ص ٨٢

الوصف التصنيفي: أسلوب انشائي يتناول ذكر الأشياء في احوالها كما هي في العالم الخارجي وتقديرها بصورة تعكس المشهد بعيداً عن وصفه للاحاسيس.

(٢) قاسم، سيزا بناء الرواية، ص ٨١.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٥٠.

يلاحظ في هذه الحكاية استخدام ابن حزم للوصف الموضوعي، الذي يذكر من خلاله أوصاف الموجودات في القصة بكل حذافيرها، بعيداً عن وصفه لإحساسه أو مدى تأثير المكان فيه، ولكن مع تنامي الأحداث اتجه السرد وجهة أخرى، واتبع ابن حزم في وصفه أسلوباً آخر، فلجأ إلى الوصف التعبيري، الذي يعبر من خلاله عن إحساسه ومدى تأثيره بالأشياء من حوله ويتضح ذلك من خلال قوله: "واني لأذكر أنني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة"^(١).

إنَّ هذا الموقف يحمل صورة سردية^(٢) مفعمة بالحركة والتشويق والإثارة، فعبارة ابن حزم "كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها".

تكشف حالته النفسية، وما هو عليه من عظيم الشوق واللهفة للقرب من محبوبته، كما تجذب هذه العبارة انتباه المتلقي، وتشوقه لمعرفة ما سيحصل، وردود أفعال الشخصيات.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٥٠.

(٢) انظر قاسم، سيزا بناء الرواية، ص ٨٣.

وكذلك الحال عندما قال: "فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك المكان وتقصد غيره." فالأفعال في النص توحى بالحركة والحيوية، وتطلق للمتلقي العنان ليتخيل ما يشاء من الصور، فالوصف بهذا الأسلوب خدم السرد ودفعه برمته إلى الأمام، وساهم في تنامي الأحداث.

وفضلاً عن ذلك، قدم الوصف مهمة وظيفية فنية جمالية تحمل معاني ودلالات أكبر من مجرد وصف المكان ووصف من هم فيه، بل تعدى ذلك لينهض بمهام تفسيرية، وصف وفسر فيها حالته النفسية، ومدى تأثير المكان ومن هم فيه عليه، فبالأمس كان المكان مصدر سعادة وأنس بقرب المحبوب، والآن (في زمن الحكي) أصبح مكان ذكرى تثير الحزن والأسى على فراق المحبوب.

إن الوصف أشبه بعملية استطراد واسعة يطلع بها الخطاب الأدبي ويتوسع على حساب الزمن الحقيقي للحكاية فيتوقف زمن القص على زمن الحكاية.

فالوصف تقنية زمنية فاعلة يعول عليها في إبطاء وتيرة السرد أو حتى تعطيله كلياً فورود الوصف في القصة يكون على حساب التتابع الزمني في سرد الأحداث، فيعطل السرد ويعلق مجرى الحكاية لفترة قد تطول أو تقصر^(١).

ومن الملاحظ على أسلوب ابن حزم في الوصف أنه اعتمد في غالبية الطوق على الوصف التعبيري أكثر من الوصف التصنيفي، لأن الطوق يمثل ظاهرة نفسية واجتماعية تلمس وتحاكي الإحساس والمشاعر وهذا شأن ظاهرة الحب.

(١) انظر ماضي، شكري أبو الشعر، هند، الرواية في الأردن، منشورات جامعة آل البيت، ٢٠٠١، عمان، الأردن، ص ١٤٥.

الفصل الثالث:
دراسة تقويمية لمكانة طوق الحمامة بين
كتب العشق

دراسة تفويمية لمكانة طوق الحمامة بين كتب العشق:

تحدث كتاب طوق الحمامة لابن حزم عن العاطفة الإنسانية التي تعتمد على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي، لم يكن ابن حزم وحده قد ألف وكتب في هذه العاطفة (الحب) بل سبقه إلى ذلك أبو داود الأصبهاني في كتابه (الزّهرة) الذي ألفه سنة ١٤٠٥هـ^(١).

لقد تناول أبو داود ظاهرة الحب بالدراسة، وذكر قصص العشاق، ولكن غلب على كتابه الشعر أكثر من الأخبار، في حين التزم ابن حزم في كتابه بمنهج يتميز بالجدة والابتكار اللذين ميزاه عن سابقيه، فقد اقتصر في كتابه على ما شاهد أو صح عنده مما نقل الثقات من الرواة، فكان منهجه واقعيًا تجريبيًا معتمدًا على تجاربه وتجارب المحبين من حوله لذا خلا منهجه من الاستقصاء العلمي أو التقصي^(٢).

أراد ابن حزم، من خلال دراسته لعاطفة الحب، أن يكشف عن حقيقتها، وأوصافها وأسبابها وأعراضها، ولم يرد أن يكون هذا الكتاب لغرض التسلية أو أن يكون كتاب حشوٍ لأخبار ونوادر وطرائف الناس، فالتزم الحقيقة، وابتعد عن الخيال، فهو يضرب صفحاً عن أخبار الأعراب والمتقدمين لكثرة الأخبار عنهم،

(١) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ج١، ط٢، ١٩٨٥، ص ٢٩.

(٢) عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢، ج٢، ص ٢٢٧.

فيقول: "ودعني من أخبار الأعراب المتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم"^(١).

يُلاحظ هنا خروج ابن حزم عن عادة أدباء وكتاب عصره أمثال أبي داود فقد تجاوز عن قصص وأخبار السابقين واكتفى بما شاهد أو سمع من الثقات.

وهذا جانب امتاز به ابن حزم عن سبقه وتلاه، بواقعية وموضوعية ، فقد حفلت الدراسات السابقة عليه (كالزهرة) للأصبهاني و(نم الهوى) لابن الجوزي و(تزيين الأسواق) للأنطاكي وغيرها من الدراسات بأخبار السابقين وأشعارهم، والأمر نفسه ملحوظ في الكتب التي ألفت بعده مثل كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج، ٤٩٣هـ، فمنهج ابن حزم يقوم على إيراد ما شاهده، ووقع تحت حسه، وحدثه به الثقات من أهل عصره فحسب^(٢).

حتى الشعر لم يورد شيئاً منه لغيره، إلا مضطراً في مواضع قليلة، من ذلك، ما أورده عن صاحبه عبدالله بن محمد بن يحيى الذي أرسل له رسالة قال فيها^(٣):

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٨٧.
(٢) عبد الرحيم، مصطفى عليان ، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤، ص٣٣٢-٣٣٤.
(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٦١.

ليت شعري عن حبلٍ ودك هل يُم
سي جديداً لديّ غير رثيث
أراني أرى محياك يوماً
وأناجيك في بلاط مغيث
فلو أن الديار ينهضها الشو
قُ أتاك البلاطُ كالمستغيث

فهنا يظهر استشهاد ابن حزم بشعر صديقه عبد الله بن محمد بن يحيى
ليشير إلى أنهما كانا يتراسلان شعراً ونثراً يشكوان لبعضهما ما آلت إليه أحوالهما
وما أصبحا عليه بعد الفراق واليبين .

أما ابن داود، فقد غلبت المختارات الشعرية المطولة على كتابه (الزهرة)
مما كان ينسبه أحياناً إلى شخصٍ معلوم، وأحياناً أخرى (لبعض أهل العصر)
ومن ذلك ما أورده من شعر منسوب إلى امرئ القيس في الباب العشرين باب
(إذا ظهر الغدر سهل الهجر)، قال فيه امرؤ القيس^(١):

إذا قلت هذا صاحبٌ قد رضيتُهُ
ومرّت به العينان بدلتُ آخرا
وذلك أني لم أثق بمُصاحبٍ
من الناس إلا خانني وتغيّرا

(١) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٢٨١.

وفي أغلب الأحيان عند استشهاده بالشعر يقول عبارة (قال آخر)، أو عبارة (لبعض أهل هذا العصر)^(١) و(قال بعض الأعراب)^(٢).

ومما يكسب كتاب الزهرة قيمة وأهمية أنه لم يورد أشعاراً لشعراء معروفين فحسب، وإنما أورد أشعاراً لشعراء مغمورين، ومن هنا يعتبر كتاب الزهرة مرجعاً لأشعارهم مثل: (المقدام بن ضيغم، ويزيد بن الطثيرة، وعمر بن لجأ والعرجي وآخرين).

أما كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج الذي ألفه سنة ٤٩٣هـ^(٣) فقد كان هدفه الجمع دون التحليل أو الاستدلال، فقد جمع الأخبار والروايات والأشعار دون هدف من ورائها سوى الجمع والرواية.

سار السراج (٤١٧-٥٠٠هـ) في كتابه على وتيرة واحدة، من البداية حتى النهاية، إذ قسّم الكتاب على اثنين وعشرين جزءاً وأودع في كل منها مجموعة من أخبار العشاق التي تنتهي في أغلبها بإيراده للأشعار المتعلقة بها.

(١) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، مكتبة المنار، الزرقاء-الأردن، ١٩٨٥، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الباب العشرون، ص ٢١٧.
(٢) الأصبهاني، أبو بكر بن داود، الزهرة، ص ٢١٩.
(٣) ابن السراج، أبي محمد بن جعفر، مصارع العشاق، تحقيق د. بسمة أحمد صدقي الدجاني، عمان، الوزارة، ص ٢٣.

لم يكن لابن سراج منهج ولا ترتيب في إيراد أخباره ربما تهرباً من ذكر
الباعث من وراء التأليف، فلم يقدم للكتاب، ثم أنهاه دون أن يعقب بشيء^(١)،
بخلاف ابن حزم وابن داود.

فقد أورد ابن حزم في مقدمته سبب التأليف، وعزاه إلى دعوة وطلب من
صديق، وفي ختام رسالته نفى عن نفسه الظنون، وتحرز من إنكار بعض
المتعصبين عليه تأليفه في هذا الغرض.

وكذلك صنع ابن داود، فقد ذكر سبب تأليفه لكتاب الزهرة، وذكر أنه تلبية
لدعوة من صديق. إلا أن السبب الحقيقي يعود، على نحو ما ذكر الخطيب، نقلاً
عن الحسين بن القاسم، إلى ما جاء في قوله: "كان محمد بن داود يميل إلى
محمد بن جامع الصيدلاني، وبسببه عمل كتاب (الزهرة)، وتؤكد صحة إشارة
الخطيب ومصادقتها البداية التي افتتح بها المؤلف (ابن داود) كتابه، فهذه البداية
تدعو إلى التأمل لأنه يقول بعد البسمة: "أطال الله في العزِّ الدائم بقالك، وصان
عن غير الأيام نعماك، وجعلني غرضاً للنوائب فداك، وقدمني إلى ورود الحمام
قبلك وأبقالك"^(٢).

(١) انظر عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، ص ٣١٧.

(٢) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٢٨-٢٩.

هذه البداية تكشف عن السبب الذي حمل ابن داود على تأليف الزهرة .

ويتفق ابن حزم وابن داود في بداية حديثهما عن الحب، على موقف الدين

من الحب وصلته به.

يقول ابن حزم: "الحب -اعزك الله - أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها الا بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة إذ القلوب بيد الله عز وجل"^(١) فهو اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليفة.

فهو بذلك يحاول أن يطمئن القارئ بذكر أمثلة من الواقع، مع إشارة إلى من أحبوا ومنهم عبد الرحمن بن معاوية الذي أحب دعجاء، وعبد الرحمن بن الحكم الذي أحب طروب، ومثله كثير، فهو أراد بذلك أن يبين موقف الدين من الحب، وحاول أن يسوّغ هو وابن داود قيام الحب وأن يجد صلة ما بين هذه العاطفة ومبادئ الإسلام، إذ كانت علاقة العشق بالدين، مثار جدل وخلاف بين المتحررين والمحافظين، فالباحثة ترى أن كلا الفقيهين يريان أن الحب لا يلحق بصاحبه عاراً ولا يتوجه إليه من الدين إنكار، ما لم يتجاوز حدود الدين وتقيّد بحدود حلاله وحرامه.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٩٠.

لقد اهتم الفقهاء بظاهرة الحب، وكان اهتمامهم بها يضاهاى اهتمامهم بالعلاقات الاجتماعية الأخرى، وما يترتب عليها من حلال وحرام، كعلاقة المرأة بالرجل وحدودها، فمن الطبيعي أن تلقى هذه المسؤولية على الفقهاء وعلماء الدين.

وتناول الفقهاء أيضاً قضية الحب، من الجوانب الفقهية الصريحة لما تتضمنه من جوانب الحلال والحرام وما يتصل بهما، فمن الضروري أن يبين الفقيه رأي الدين في ذلك^(١)، كحدود النظر وتكراره مثلاً، وما يرتبط بالعفة والطهر والخلوة وقضايا أخرى من صميم عمل الفقه ولا تصدر إلاً منه، فابن حزم يمتلك يقظة الفكر، ورهافة الإحساس، وغزارة العلم، وسعة المعرفة بالكتاب والسنة، الأمر الذي يخوله الخوض في هذه المواضيع.

فقد تطرق ابن حزم لموضوع الحب، دون أن يثير الغرائز والشهوات، وإنما لتقديم العظة والفائدة والنصح للمحبين، وتتوزع هذه النصائح على أبواب الطوق، فمثلاً باب (من أحب في النوم)، الذي أورد فيه خبراً عن عمار بن يزيد: أنه رأى

(١) انظر: ابراهيم، حسن عبد الله، الحب في التراث العربي، إصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٠، ص ٥٣-٥٧.

في نومه جارية فاستيقظ وقد ذهب قلبه فيها، فقال له ابن حزم: "من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة، وتعلق وهمك بمعدوم لا يوجد"^(١).

فهنا يقدم ابن حزم موعظة ونصيحة بعدم إتباع الوهم، وعدم إشغال النفس بأمور خيالية غير موجودة في الواقع، لا تورث إلا الكآبة والإحباط. وكذلك الحال عند ابن داود، فقد قدم موضوع الحب بدافع النصيح والعهظة وبقلب شعري أكثر منه نثري، ومن ذلك ما أورده في باب (من تجلد على النوى فقد تعرض للبلأ) قال ولبعض أهل هذا العصر^(٢):

أصول به تيهأ عليه فمن أرى من الناس قبلي عاشقاً يتصلفُ
إذا خفتُ منه الغدرَ أبدى توافي يزول به خوفي ويبقى التَّخَوُّفُ

فهنا يشير ابن داود إلى أنه ربما يعرض العاشق عن المعشوق، إما لامتحان الصبر إما لتجديد حاله عند محبوبه، وكثيراً ما يجري الأمر على ضد تقديره.

أما كتاب (مصارع العشاق) لابن السراج، فلا يمكن أن نعهده دراسة للعشوق، كما صنع ابن داود في الزهرة، وابن حزم في طوق الحمامة، بل هو حشد

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١١٥.

(٢) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٢٥١.

غير مرتب من الأخبار والروايات والأشعار لابن السراج وغيره، رواها عن السابقين ، وأغلب هذه الأشعار من نظمه فجاءت في (مصارع العشاق) حليةً وتكملةً ولم تأت ليستدل بها على شيء، ولم تورد لشيء، فالطابع الإخباري أبعد أعمال الكتاب عن منهج الدراسة والتحليل^(١).

فكان أشبه بالمجاميع الأدبية التي كان القصد منها أن تحوي أكبر قدر من الخبر والشعر، فالكتاب لم يقدم رأياً أو يقدم علة، ولم يقتصر على العشق بمعنى العاطفة الإنسانية، بل تعدها إلى المحبة الإلهية التي امتزجت بالفلسفة والتصوف أو المحبة الأسطورية كعشق الطير والجن.

وإذا أنعم النظر في الكتب الثلاثة ظهر من ناحية دراسة الحب وتحليل معانيه، أن ابن داود تفوق على ابن حزم في النظر إلى التراث الشعري، بينما تفوق ابن حزم بمنهجه التجريبي الذي أهمل التراث الشعري، وأورد الحقائق المعلومة، فلم يعالج إلا ما اعتقد أنه الواقع ، ويظهر ذلك في باب الهجر عندما قال :ولقد عرض لي في الصبا هجرٌ مع بعض من كنت آلف، وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود، وتحدث عن واقعه عندما أخبر بأنه دهى بفادحة الموت ففقد من يحب وفي ذلك حديث عن تجربته الشخصية استناداً إلى واقعه والأمثلة كثيرة

(١) انظر عبد الواحد، مصطفى ،دراسة الحب في الأدب العربي، الجزء الثاني، ص ٣٤٦-٣٤٩.

في طوق الحمامة أما ابن السراج فلم يقدم دراسة عن الحب بل جمع أشعاراً
وأخباراً، فكان منهجه نقلياً.

أما من ناحية الشعر فيبدو أن كتاب الزهرة للأصبهاني هو الأكثر حظاً
في إيراد الشعر المتعلق بالحب، فقد جمع خمسة آلاف بيت في موضوع واحد،
وجعل كل بيت لمعنى واحد بعكس ابن السراج في كتابه مصارع العشاق الذي
جمع قدراً كبيراً من الشعر ولم يحسن ترتيبه وتصنيفه.

أما الطوق، فهو الأقل شعراً، لأن صاحبه لم يكن هدفه الجمع دائماً،
وإنما أراد إظهار شاعريته ونتاجه الشعري في مضمار الحب.

أما من ناحية التعبير عن الذات أو الجانب الذاتي، فقد عبر ابن حزم عن
ذاته وتجاربه ولم يتحرج من ذلك، فعرض جوانب شخصيته وحياته وبيئته وشعره،
بعيداً عن التكلف والافتعال ويتجلى ذلك في أبيات قالها في باب الوصف^(١):

ويا من لامني في حب من لم يره طرفي

لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف

فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١١٨.

هنا جاء شعر ابن حزم متميزاً بالبساطة والبعد عن التكلف والافتعال في وصف حب النساء المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال.

وما يلاحظ على أشعار ابن حزم أنها عبارة عن أبيات ومقطوعات قصيرة، فهي ليست قصائد مطولة، وهذه المقطوعات أتت بها ليستشهد بها ويعبر عن قدرته الشعرية، واتخذ من مقطعاته طريقاً يعبر به عن تجاربه وتجارب الآخرين، من هذه المقطوعات ما جاء في باب الغدر يقول^(١)

أقمت سفيراً قاصداً في مطالبني وثقتُ به جهلاً فضربَ بيننا
وحلَّ عرى وُدِّي وأثبت وُدّه وأبعد عني كل ما كان ممكنا

يُلاحظ أن هذه المقطوعة مكونة من بيتين فهي ليست قصيدة مطولة، فقد كان غرض ابن حزم الاستشهاد بالشعر وليس جمعه كما فعل غيره ممن اهتموا بظاهرة الحب فكانت كتبهم شبيهة بالمجامع الأدبية التي غرضها الجمع.

وقد أشار الدكتور احمد هيكل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة إلى أن أشعار ابن حزم في طوق الحمامة كانت تتراوح ما بين الجودة والتوسط^(٢).

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢١٣.
(٢) انظر، هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، طبعة ٢، ١٩٩٧، ص ٣٩٥-٤٠٠.

والباحثة ترى أن السبب في ذلك هو أن ابن حزم ليس شاعراً متخصصاً، وإنما هو شاعرٌ أبيات يقول الشعر عندما يعرض له موقف فيصف، ويعبر بهذا الشعر عن حاله وتجربته وتجربة الآخرين وحالهم، ورفض ابن حزم أن يحمل الطوق بأشعار غيره، وفضل أن يستشهد بأشعاره هو، فهي أقدر من سواها على التعبير عن تجربته، وكانت المقطوعات والأبيات التي أوردها ابن حزم قد وفقت في رسم المسار الأدبي الذي لا ينبغي للشاعر أن يحدد عنه، وذلك بتحديد الشاعر بخطوط يجب أن يحيط نفسه بها، وذلك بأن تكون أشعاره في إطار الحكم والخير، التي تعين النفس وتهذبها، ويلحق بذلك أشعار المديح والرثاء التي تنثي على صفات الممدوح الحسنة وتذكر بالموت في أشعار الرثاء، من ذلك ما قاله في باب الموت^(١):

لو جاعني عملي في حسن صورتها يوم الحساب ويوم النفخ في الصور
لكنت أحظى عباد الله كلهم بالجنيتين وقرب الخرد الحور

في هذه الأبيات جمع ابن حزم ما بين مدح المحبوب، فقد وصفه بأنه غاية في الحسن والجمال، وما بين التذكير بالآخرة والحساب والموت، فقد تمنى أن تكون صورة كتابه يوم القيامة بحسن صورة من يحب، وسيكون عند ذلك أحظى عباد الله كلهم بمحبة الخالق وينال الجنة.

(١) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٧٤.

أما أغراض الشعر، كالغزل، والهجاء، والصعلكة فهي من المكروه الذي لا ينبغي نظم الشعر فيه عند ابن حزم، وعند أغلب الفقهاء، فتلك الأغراض في أساسها بنيت على كذب^(١).

وينطلق ابن حزم في ذلك من أساس خلقي يتلمس من خلاله الأثر النفسي لهذه الفنون في المتلقي ويدرك مدى التأثير في سلوكه، فشعر الغزل مثلاً يوجب الفتنة ويقود إلى اتباع الشهوات، ويصرف الناس عن ذكر الله عز وجل. وكذلك الحال في شعر الصعلكة الذي يدفع بالنفس إلى المهالك وسفك الدماء والسرقة والنهب، أما الهجاء ففيه انتهاك للحرمات وقذف للأعراض.

وهذا ما حدا بابن حزم إلى تجنب قول الشعر في هذه الأغراض، ومواقفه وآراؤه هذه تصدر عن فقه ظاهري، متشرب لأصول العقيدة، فهو قد اتخذ الفقه منهجاً وسلوكاً لا يتعدى بموجبها على المقياس الخلقي والديني الذي يمثله قول الله تعالى: "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون"^(٢) صدق الله العظيم

(١) عبد الرحيم ، مصطفى عليان ، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٤، ص ٣٣٢-٣٣٤.

(٢) القرآن الكريم، سورة الشعراء، الجزء ١٩، آية ٢٢٤.

ومما يؤخذ على أشعار ابن السراج في مصارع العشاق أنها تتراوح ما بين القوة والضعف وسُمو المعنى وضعته، فقد كان أحياناً يورد أشعاراً تتأى عن العذرية، ولا تتسق مع العقيدة، وكان يجاري بها أهل عصره، وكانت هذه المجازاة بقصد التظاهر وإتيان القدرة أمام الآخرين على تمكنه من الشعر وقدرته على النظم ومجازاة الشعراء في مذاهبهم من ذلك ما أورده من غزل بالمذكر فيه مجون وإفحاش.

إن الشعر في كتاب مصارع العشاق كان حلية لا مادة يمكن إن تفيد منها دراسة، وأن تتخذ وسيلة للاستدلال، فكان مجال مباحة وأداة استعراض للقدرة على النظم ولم يعد شعر مصارع العشاق سمات ايجابية، إذ ظهرت فيه لابن سراج معاني العفاف والنقاء، فعكس بذلك استجابة التصوير الإسلامي لصدق العاطفة والالتزام بالأخلاق والمبادئ السامية، إذ نجده يروي في كتابه مصارع العشاق، شعراً لجارية مجنونة سلم عليها فلم ترد عليه السلام، ثم ولّى فسمعها تقول^(١):

زهد الزاهدون والعابدونا	إذ لمولاهم أجاجوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه	فمضى ليلهم، وهم ساهرونا
صيرتهم محبة الله حتى	علم الناس أن فيهم جنونا

(١) السراج، أبي محمد بن جعفر بن أحمد، مصارع العشاق، المجلد الأول، دار بيروت، دار النفائس، بيروت، لبنان، ص ١٨٢.

إن التأمل في الكتب الثلاثة المتعلقة بموضوع الحب كفيل بأن يتبين فيها طابع العفاف الذي هو ضرورة ورمز للحب وبدونه يصبح رذيلة من الرذائل، لا يتميز بأية قيمة أخلاقية كريمة. فابن داود أفرد للعفاف باباً من أبواب كتابه تحت عنوان (من كان ظريفاً فليكن عفيفاً)، فهو يؤمن بضرورة العفاف ويحث عليه.

وابن حزم يرى أن العفاف أصله مخافة الله والحذر من سخطه، ومثلهما ابن السراج الذي أورد قصصاً حول العفاف، وأفرد له باب (الظافرين بأحبابهم مع العفاف بعد أن أشرفوا على الإتلاف)، وباب (فساق العشاق) وهذه الظواهر تحمل معنى الإيمان بالعفاف والدعوة إليه والتمسك به.

وما يميز هذه الدراسات أيضاً أنها قد أجمعت على الحفاظ على أحكام الدين وقواعده، وقد تناولت أمر الحب من الوجهة الأدبية والنفسية، وحرصت في جميعها على تحديد موقف الدين منها.

فالثقافة الإسلامية كانت مصدراً أصيلاً من مصادر هذه الدراسات.

فضلاً عن أن البيئة كانت تمد هؤلاء الأدباء بشعر عفيف شبيه بالشعر العذري إضافة إلى قصص العشاق وتجاربهم التي كانت جميعاً عوامل ذات أثر واضح في الحب الأندلسي.

المرأة في طوق الحمامة وكتب العشق الأخرى:

لا شك في أن كتاب طوق الحمامة يمثل خلقاً أدبياً، فهو دليل حي وواضح على ثقافة ابن حزم الواسعة، إذ أنه يثير في كل خير عدداً غير قليل من القضايا المهمة، ولا سيما قضية المرأة، ومكانتها في المجتمع الأندلسي، وموقفها ودورها في علاقات العشق: أهى عاشقة أم معشوقة، وهل في مقدرتها التعبير عن مشاعرها؟ وما هي الصورة التي ظهرت فيها المرأة في الطوق؟ وما هو مستوى ظهورها، وما مدى سعة ظهورها في مشاهد العشق، وهل احتلت مكانها، سيدة محترمة ذات منزلة في قصر الخلافة أم كانت جارية؟

أما على مستوى علاقات الحب، ودور المرأة في هذه العلاقات في مجتمع الأندلس، فقد ساهمت البيئة الأندلسية المنفتحة في انتشار الاختلاط بين المرأة والرجل، فأتاح الفسحة الكافية أمام المرأة للإعراب عن مشاعرها، ولم تقتصر هذه الظاهرة على فئة معينة من فئات المجتمع، ولم تستأثر بها فئة الأغنياء دون فئة الفقراء، بل تعدتها إلى الجوارى والإماء اللواتي أحببن واكتوين بنار الحب، وعبرن عما لقين من معاناة، كما كوين به رجالات الأندلس، خلفاء كانوا أم فقهاء أم من العامة.

والمرأة العربية الشرقية، كما يصورها شعر المشرقيين، كانت بخيلة في وصالها متمنعة صعبة المنال، ولم تتح لها فرصة التعبير عن مشاعرها

ومعاناتها، فالعادة عند العرب أن المرأة معشوقة لا عاشقة، مطلوبة لا طالبة، وبخلاف ذلك كان حال المرأة في الأندلس، فظهرت في الشعر والأخبار مختلفة على نحو ظاهر عن أختها المشرقية، فهي تعشق وتحضر مع الرجال مجالس الأدب واللهو وتحاور الرجال، وتتشد الشعر وتتغزل دونما حرج، وغزل الشواعر الأندلسيات معروف، على أن من هؤلاء الجواري من اتصفت بالعفة وابتعدن عن مواطن الشبهة، وقد أورد ابن حزم في باب (من أحب من نظرة واحدة)^(١) قصة عن الرمادي مع الجارية المتعفة التي طلب الرمادي مواعدها فاختلفت وكأن الأرض ابتلعتهما، ولم يستثن ابن حزم نفسه، فأورد تجربته الخاصة، وذلك أنه تعلق في صباه بجاريه نشأت في دارهم اسمها نعم، والأمثلة غير قليلة في الطوق وفي كتب العشق السابقة واللاحقة له، كلها تفصح عن أنه كان للمرأة مكانة مرموقة في قصور الخلفاء والأمراء الأندلسيين، وأنها كانت تحظى بمكانة خاصة في قلوب هؤلاء، وكان للجواري الحظ الأوفر في هذه المكانة.

والأكثر من ذلك أن بين هؤلاء من كنّ أمهات ولد، كدعجاء مع عبد الرحمن بن معاوية، وأن منهن عاشقات "كالجارية التي اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو لا علم عنده، حتى ضاق صبرها فبادرت إليه وقبلته"^(٢).

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٢٠.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٢.

ولشيوخ هذه الظاهرة لم يتورع ابن حزم عن التصريح أحياناً بأسماء المعشوقات، وقد يتكلم في أحيان أخرى فلا يصرح تفادياً للحرج.

فقصة المرأة التي اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء تشير إلى أن المرأة في المجتمع الأندلسي، كان باستطاعتها أن تعبر عن حبها الذي لا يعترف بالطبقات والفوارق الاجتماعية.

ويصور كتاب الزهرة الظهور البارز للمرأة التي تمثل الطرف الثاني في علاقات العشق، ومن ذلك ما أورده ابن داود الأصبهاني في باب (من منع من الوصول اقتصر على الرسول).

إذ ذكر أن جميلاً وكثيراً التقيا، فطلب جميلٌ من كثير أن يأخذ له موعداً من بئينة عن طريق الحيلة، من خلال أبيات ينشدها أمام عمها فقال كثير^(١):

أقول لها يا عزّ أرسل صاحبي	على نأي دارٍ والموكلُ مرسلُ
بأن تجعلني بيني وبينك موعداً	وأن تأمريني ما الذي فيه أفعُلُ
أما تذكرين العهدَ يوم لقيتكم	بأسفل وادي الدّوم والثوب يغسلُ

(١) الأصبهاني، أبي بكر محمد بن داود، الزهرة، الجزء الأول، الباب الرابع عشر، ص ١٧٣.

"فلما سمعت بثينة ذلك، قالت اخساً. قال لها عمها: ما الذي اخسأت يا بثينة؟ قالت: كلباً يعترينا ليلاً، وقد رأيتُه نهاراً، فانصرف كثيرٌ إلى جميلٍ، وعرفه أنها قد ذكرت الليل فصر إليها"^(١).

في هذه الحادثة يعبر ابن داود الأصبهاني عن نظرتِه للمرأة المعشوقة المطلوبة التي تمتاز بالحيلة والذكاء، فقد ساقَت موافقتها لرؤية جميل عن طريق إيرادها لفظة الليل التي توحى بالتخفي، والتستر عن أعين الناس.

أما ابن السراج في كتابه مصارع العشاق الذي ألفه (عام ٤٩٣ هـ) فقد ذكر النساء وأخذ عنهن الأخبار ومن ذلك ما ذكر في الجزء الخامس في (باب من حمله هواه على قتل من يهواه) عن الشیخة شهدة بنت أحمد: أخبرتنا الشیخة الجليلة فخر النساء شهدة بنت أحمد بن الفرج أن ابن السراج قال أخبرنا أبو ظاهر أحمد بن علي السواق قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن فارس:.... عن الأعمش^(٢) قال: كان في بني إسرائيل رجل لص يقال له برزين المناقيب، قال: أعجبتني امرأة من نواحي الكوفة، فأخذت سيفي وخرجت في السحر فلقبت بغير

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٣.

(٢) ابن السراج، مصارع العشاق، تحقيق د. بسمة أحمد صدقي الدجاني، ص ١٩٢.

سقاء فضربت عنقه ثم توجهت نحوها، فتسورت عليها فعالجتها، فلم أقدر عليها،
وامتنعت أن تدخل معي في الحرام"^(١).

هذه الحادثة التي أوردها ابن السراج، من هذه المرأة، تصف موقف ابن
السراج من المرأة، فهو ينظر إليها على أنها مثال للعفاف والطهر، ولا ترضى
بالحرام، فهو يكرم المرأة، ويرفع من شأنها، فهي عندما قدمت المساعدة دلّ على
أنها ذات خلق كريم، ولا تتردد في مساعدة المحتاج وهي في الوقت نفسه عفيفة
لا تقبل الحرام وقادرة على الحفاظ على نفسها.

وعرّج ابن السراج موضوع الوفاء، فوصف المرأة بأنها وفيّة، وجاء ذلك
تحت عنوان (وفاء زوجة) في خبر نقله ابن السراج عن أبي بكر العامري عن
مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: "تزوج مالك بن عمر الغساني بابنة عمّ
النعمان بن بشير، فشغف كل واحد منهما بصاحبه، وكان مالك شجاعاً،
فاشترطت عليه أن لا يقاتل... شغفه عليه وضنى به فباشر القتال، فأصابته
جراح فقال وهو متقل منها"^(٢):

ألا ليت شعري عن غزالٍ تركته
إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنعُ
فلو أنني كنتُ المؤخَّرَ بعدهُ
لما برحت نفسي عليه تطلُّعُ

(١) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٢) ابن السراج، مصارع العشاق، المجلد الأول، دار بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٧،
ص ٩٤.

وأنه مكث يوماً وليلة ثم مات من جراحه، فلما وصل خبره إلى زوجته
بكته سنة، ثم اعتقل لسانها، فامتعت عن الكلام، وكثر خطابها، فقال عمومها
وولادة أمرها نزوجها لعل لسانها ينطلق، فما كان في الليلة التي أهديت إليه فيها،
قامت على باب القبة وقالت^(١):

يقول رجال: زوجوها لعلها تقر وترضى بعده بخليل

فأخفيت في النفس التي ليس بعدها رجاء لهم، والصدق أفضل قيل

فلما فرغت من الشعر شهقت ثم ماتت.

نقد أظهر ابن السراج أن المرأة ليست عفيفة وذكية فحسب، وإنما هي
أيضاً وفيّة وشاعرة وأديبة، فقد أورد لهذه الزوجة شعراً ترثي فيه زوجها وتتعاها
بمزيد من الحزن والأسى، ولم ترض بعده بزواج آخر فكان آخر كلامها في هذه
الدنيا منصباً على زوجها وصفاته الحسنة التي لم تقبل بأحد بعده وفاءً منها له
ولعشرتها معه، فقد رفع ابن السراج من مكانتها ونظر إليها نظرة احترام وصور
صدق عاطفتها ووفاءها وإخلاصها.

(١) ابن السراج، مصارع العشاق، المجلد الأول، دار بيروت، ودار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧،

وتظهر المرأة في طوق الحمامة شاعرة أيضاً، فقد أقحمها ابن حزم في ميدان الأدب والشعر، وجعلها طرفاً فيه، فذكر من النساء أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح، كما ذكر المرأة المغنية التي كان لها في القلب منزلة كبيرة، لولوع أهل الأندلس بالغناء وتعلمه.

يصور ذلك الخبر الذي أورده ابن حزم عن فتى وجارية كانا يتحابان، فأرادها في بعض وصلها على بعض ما لا يحل، فقالت: "والله لأشكونك في الملاء علانية ولأفضحك فضيحة مستورة"^(١).

فمن خلال هذا الخبر يتضح أن ابن حزم يصور جانباً أخلاقياً تميزت به النساء في المجتمع الأندلسي، فقد وصف عفاف الجارية وتمسكها بالقيم والمبادئ والأخلاق، وعلى الرغم من حبها لذلك الفتى، غير أن طهرها وعفتها حالاً بينها وبين ارتكاب المعصية، فابن حزم يقدم صورة راقية للمرأة الأندلسية العفيفة الملتزمة فهو يحول لغة الحب من ثقافة الجسد إلى ثقافة الحب والنظر إلى المعنويات.

وهذا الأمر مناقض تماماً لما يراه الدكتور مصطفى عبد الواحد في كتابه (دراسة الحب في الأدب العربي)، فهو يرى "أن ابن حزم جرد المرأة من كثير من

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٣٥.

الخيالات التي تحيط بها من الأدب وأغرى بتتبع المرأة وإحكام الرقابة عليها وحذر منها ومن كيدها وأوحى بالاحتراز منها والاحتياط"^(١) وهذا مما لا يمكن للباحثة تتفق عليه مع الدكتور مصطفى عبد الواحد فيما ذهب إليه تجاه ابن حزم ونظرته للمرأة. فالمتأمل في الطوق يجد أن ابن حزم قد اعترف بفضل المرأة في الأندلس، وظهر أنها قامت بدور المربية والمعلمة وأتقنت هذا الدور خير إتقان على حد قول ابن حزم: "هن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار"^(٢).

فهذا اعتراف واضح من ابن حزم بفضل المرأة عليه، وأنها كانت سبباً فيما وصل إليه من ثقافة وعلم، فهي مصدر من مصادر ثقافة ابن حزم وتنشئته وتربيته، فلو أتاحت لها الفرص لتفوقت على الرجال في الكثير من الأنشطة والمجالات.

والدراسة المتأنية لطوق الحمامة تكشف عن أن ابن حزم يدعو لاحترام المرأة ويطالب بكسر قيودها ويظهر ذلك في باب التعفف، عندما أورد قصة المرأة التي اجتمعت يوماً بمن تحب ، فطلب منها ما يغضب الله فرفضت ونهته عن ذلك خشيةً من عذاب الله ، ففي الطوق تذكيراً وتأكيداً لثقافة الحب المعنوي الطاهر العفيف المتمسك بقيم وتعاليم الإسلام، بعيداً عن ثقافة الجسد، .

(١) عبد الواحد، مصطفى ، دراسة الحب في الأدب العربي، ج٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧٢، ص٤١٨.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٦.

وكما ترى الدكتور آمال منصور في بحث قدمته، بعنوان تمثلات المرأة في طوق الحمامة لابن حزم. مقارنة ثقافية في خطاب العشق أن ابن حزم يرسم سفرًا جديدًا لأبجديات العشق^(١) فهو ليس كتاب هاوٍ يبوح بمشاعره وبتجاربه، ولكنه تجربة أدبية جديدة، يؤسس فيها لأعراف جديدة هي أبعد بكثير من مجرد كتاب يرصد تجارب فردية أو جماعية.

والباحثة تتفق مع الدكتورة آمال منصور فيما ذهبت إليه من آراء تجاه ابن حزم ونظرته للمرأة، فقد عكس ابن حزم صورة المرأة الأندلسية وما هي عليه من الأخلاق والقيم النبيلة والثقافة والمعرفة التي تمكنها من أن تنافس الرجل.

ومن تجليات اهتمام ابن حزم بالمرأة، أنه صور جانباً من الحياة العاطفية للمرأة القرطبية، وما هي عليه من الغرابة، إذ نجد المرأة المسنة ذات العكاكيز تعمل سفيرة حب، فتسعى إلى التوفيق بين المتحابين وعقد الصلة بينهما.

(١) انظر منصور، آمال تمثلات المرأة في طوق الحمامة لابن حزم، مقارنة ثقافية في خطاب العشق، المؤتمر للنقد السابع عشر، الأدب الأندلسي بناءً وموضوعاً ولغة وصورة، جامعة ممد خيرز، بسكرة، الجزائر، ٢٠١٤، ص ٤-١١.

(٢) المصدر نفسه ص ٤_١١

ومن ملاحظات ابن حزم الاجتماعية بصدد العلاقة العاطفية ما صوره في الطوق، فقد أشار فيه إلى أن الكتمان في أمر الحب أكثر عند النساء العجائز لمحافظتهن وللتواصي بالكتمان من الفتيات لأنهن قد يكشفن السرّ لغيرتهن.

إن المتتبع لصورة المرأة في الطوق يلاحظ شيوع كلمة جارية، والجواري كن على نوعين، جوارٍ تجري عليهن أحوال البيع والشراء^(١) ومن هذا النوع ما ورد من خبر في باب الوصل، قال فيه ابن حزم: "حدثني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات، أنه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعاً منها فهام عقله بها"^(٢).

هذا الخبر يتحدث عن نوع من الجواري هن اللواتي تجري عليهن أحوال البيع والشراء.

أما النوع الثاني: فجوارٍ يشير جو الأحداث إلى أنهن حرات وان اللفظ صفة لهن وأن المقصود بالجارية المرأة التي أشار إلى مركزها الاجتماعي بقوله: "وإنني لأعرف جاريةً من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد وقد

(١) انظر بربوش، عفيف، المرأة في طوق الحمامة، رشفات ابن حزم الأندلسية، مجلة عمان، الأردن، ص ١٠٥-١١١.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٨.

بلغ بها حبُّ فتى من أبناء إخواني من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار
الأسود^(١).

والجارية في لسان العرب هي الفتية من النساء بيّنة الجارية، والجراء
والجرين أي الصبا^(٢).

ولعل القسم الأول من الجواري هن الأغلب ظهوراً في تضاعف الكتاب،
ولا يستغرب ذلك في الأندلس حيث شاع اقتناؤهن، وحرص الأندلسيون على
تنقيفهن وتأديبهن ليقمن بتربية الأبناء وتعليمهم، ومثال ذلك نشأة ابن حزم وتربية
الجواري له وتعليمه للقرآن.

وهذه الملاحظ تؤكد أن ابن حزم في كتابه طوق الحمامة، يعلي من شأن
المرأة حتى الجارية منهن، إذ يفخر ابن حزم ويعترف بأن الذي قام على تربيته
وتعليمه القرآن والشعر هن الجواري، فاعترف لهن بجميلهن عليه، وأظهر احترامه
لهن في الطوق على نحو ما تقدم ذكره.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٤٢.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د. ت) ص ٣٨.

لقد أثبت ابن حزم أن النظرة الإسلامية للعشق هي هي في كل العصور التي تعرضت كتب العشق لدراسة الحب فيها سواءً كتاب الزهرة لابن داود أو كتاب الطوق لان حزم أو كتاب مصارع العشاق لابن السراج، فهذه الدراسات الثلاث تلتقي في نقطة واحدة تتمثل في أنها جميعها قدّرت المرأة واحترمتها ورفعت من شأنها ودعت إلى تحريرها من الأطواق المقيدة لها.

العناصر الفنية في طوق الحمامة:

يضم الطوق، إلى جانب مادته الأساسية، معارف وعلومًا وثقافات، يأتي

في مقدمتها:

الشعر:

لم يكن كتاب طوق الحمامة كتاباً في الشعر أو حوله، وإنما كان لرصد حالة من حالات النفس الإنسانية، وهي الحب: صفاته ومعانيه وأعراضه وأسبابه اعتماداً على الشواهد والملاحظة وجمع الأخبار، وصولاً إلى النتائج.

أما الشعر فقد اتخذ منه ابن حزم جسراً يعبر عليه يثبت به جملة من الحقائق والظواهر النفسية التي تظهر على المحبين فجاء الشعر وسيلة لتحقيق

الغرض من الكتاب، ومعبراً عن أحوال النفس بأسلوب جمالي بلاغي على نحو ما نجده في قول ابن حزم في باب الرقيب:

مواصلٌ لا يغيب قصراً أعظم بهذا الوصال غماً
صار وصرنا لفرط مالا يزول كالاسم والمسمى^(١)

بهذين البيتين من الشعر قدم الحبيبان شكوى، وعبرا عما يجول في النفس من اللوعة التي يتركها وجود الرقيب الذي يتابع الخطى ويتطلع في الوجوه، ويحصي الأنفاس.

فهذا الرقيب أدمن الجلوس، يرقب حال الحبيين حتى صار وجوده علامة على وجودهما.

ومن الأشعار التي أوردها ابن حزم وصور بها معاناته ما أورده في باب

البين:

أرى دارها في كل حينٍ وساعةٍ ولكنَّ من في الدار عني مُغيبُ
فيالكَ جارَ الجنبِ أسمعُ حسَّهُ وأعلمُ أن الصَّينَ أدنى وأقربُ^(٢)

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٨.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢١٦.

هنا بيتّ ابن حزم ما يكابده العاشق من آلام البين والبعد والنوى بأنواعه، فهذا بين منع من اللقاء، وحظر على المحبوب أن يرى محبه، فعلى الرغم من قرب دار الحبيب، جعل وجود العين (الرقيب) كلاً منهما بعيداً عن الآخر، وهذا ما يولد الحزن والأسى لكلا الحبيبين.

ومثل هذا ما جاء في باب (الواشي) من شعر يصف حال الواشي وصفاً دقيقاً يظهر أن الوشاية تمثل سر حياة الواشي، فهي بالنسبة له كالهواء الذي يتنفسه:

عجبت لواشٍ ظل يكشف أمرنا وما بسوى أخبارنا يتنفس^(١)

فقد قدم الشعر في طوق الحمامة وظيفة إيحائية تصويرية تجلى فيها الجانب الاستعاري المعبر عن وجدان ابن حزم وهمومه وهموم الآخرين من خلال الكلمات الموجزة الموحية.

التناص:

يعني التناص الذي يعد أهم ملمح من ملامح الكتابة الأدبية الإبداعية: "تلاقح النصوص عبر المحاور والاستلهام والاستتساخ بطريقة واعية أو غير مقصودة"^(٢).

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٧٢.

(٢) ادريس، نجمة عبد الله، بحث بعنوان: طوق الحمامة لابن حزم، خطاب في الأدب أم خطاب في الثقافة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية الكونية، سنة ٢٠٠٧، العدد ١٠٠/٢٥، ص ١٧.

من الملاحظ أن التناص كان شديد الحضور في طوق الحمامة، ليشمل جملة من الأجناس الأدبية الأخرى: كالاستعانة والاستشهاد بالأمثال والأقوال المأثورة وبالقرآن الكريم وبالسنة النبوية.

فمن خلال النظر في الطوق يلاحظ أن ابن حزم سار على غرار سابقه في حديثه عن دواعي تأليفه لطوق الحمامة، وأن كتابه جاء استجابة لدعوة صديق، وهذا الأمر أيضاً ينطبق على كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني الذي اشترك معه في داعي التأليف، وهو استجابة لرجاء صديق فقد يكون ابن حزم متأثر أيضاً بابن داود فكانت دعوة الصديق. السبب في تأليفه لطوق الحمامة وسار على غرار ابن داود الأصبهاني، يقول ابن حزم في مقدمة كتابه طوق الحمامة: "فإن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بحضرة شاطبة، تذكر من حسن حالك ما يسرني... فبدرت إلى مرغوبك ولولا الإيجاب لك لما تكلفتة"^(١).

نلاحظ هنا أن ابن حزم قد استلهم الفكرة من سابقه، وسار على طريقتهم باصطناع أسلوبٍ واعٍ يخلصه من المساءلة.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٨٦.

ومما يلحظ في الطوق تمرّس ابن حزم في فنون البلاغة إذ يظهر تبجر
ابن حزم في فنون البلاغة من خلال ولعه بالتشبيه في الشعر، وإكثاره من
استخدامه في الطوق في أغلب الأبواب لما للتشبيه من دور في رسم الصورة
المطلوبة من مخيلة السامع والقارئ عن حال المتحابين، ويظهر ذلك في باب
(طي السر):

كأن القلب إذ يبدو قطاة ضمها شرك^(١)

فابن حزم يشبه قلب العاشق بالقطاة في شرك وهو بذلك سار على نهج
الشعراء العذريين القدامى الذين تتردد مثل هذه الصور في أشعارهم من ذلك ما
نجده لدى قيس ابن الملوح، مجنون ليلي الذي يقول:

كأن القلب ليلة قيل يُغدى بليلي العامرية أو يراخ
قطاة عزها شرك فأضحت تقلبه وقد علق الجناح

وهكذا يظهر اعتماد ابن حزم التشبيه في تقريب ما يقول إلى ذهن
المتلقي. كما يظهر تأثره بالموروث الأدبي العربي القديم، وإمامه بأشعار
الأقدمين لذا سار على نهجهم في تشبيهاته.

ومن جملة ما أتى به ابن حزم من تشبيهات في باب الوصل:

كأنها حين تخطو في تأودها قضيب نرجسة في الروض مياس

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٤٦.

كأنما خطوها في قلب عاشقها ففيه من وقعها خطرٌ ووسواسٌ

كأنما مشيها مشي الحمامة لا كدُّ يعاب ولا بطءٌ به باسٌ^(١)

في هذه الأبيات تتعدد التشبيهات والمشبه واحد وهي الجارية التي اشتد
وجدها بفتى من أبناء الرؤساء، وهو بغرارة الصبا لا يشعر، ففي الأبيات وصف
للجارية وهي تنهادى في مشيتها وتتمايل كقضيبي نرجس لرشاقتها ونعومتها
وجمال قوامها، كما شبّهت خطواتها وكأنها تخطو على قلب عاشقها لا على
الأرض لشدة وقع خطواتها في قلبه فتسارع نبض قلبه وازداد خفقانه لانفعاله
ودهشته مما يرى، كما شبّهت بالحمامة لتهاديها في مشيتها فلا هي مسرعة ولا
بطيئة كما أن الحمامة رمز للمحبة والسلام.

وجاء التشبيه في (باب الوصل) بقلب الاستعارة في قوله:

يضحكُ الروضُ والسحائبُ تبكي كحبيبٍ رآه صبًّا معنّى^(٢)

في البيت تشبيه للروض والسحائب بالإنسان الضاحك الباكي، في قالب
الاستعارة فالبكاء والضحك من صفات الإنسان لا للجمادات، لكن الشاعر أنسنَ
الأشياء، ليبيدي تعاطفها مع الشاعر المعنّى.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٣.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٨٩.

فالتطوق يعج بالتشبيهات التي تعبر عن حال من شبهوا بها وتعبر عن حالتهم النفسية وما أصابهم من لوعة العشق ومكابداته.

ونلاحظ إفادة ابن حزم من ميراث الشعراء الأقدمين، ومداومته على الدرس الأدبي واحتذائه طرائف الأقدمين، وأساليبهم الفنية ومنها تشطيره لمعلقة طرفة بن العبد في باب الهجر فيقول^(١):

تذكرت ودّ للحبيب كأنه
لخولة أطلالٍ ببرقةٍ ثمهدِ
وعهدي بعهدٍ كأن لي منه ثابتٍ
يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقفت به لا موقناً برجوعه
ولا آيساً أبكي وأبكي إلى الغدِ

الاقْتِباس

الاقْتِباس الذي يشير إلى التأثر في الحديث النبوي الشريف ومن ذلك قوله من باب الواشي:

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإنه يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار"^(٢).

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٩٤.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٧٤، ورد في صحيح مسلم، باب البر، ج ٢، ص ٢٨٩.

وهذا يظهر تأثر ابن حزم بالسنة النبوية وميله إلى الاقتباس من أحاديث النبي عليه السلام، وتوظيفها في أقواله مدعمةً لآرائه ومعتقداته، مكرراً أحاديث مختلفة تدور في فلك النهي عن الكذب والحث على الصدق.

كما يلاحظ في الطوق الاقتباس من القرآن الكريم، وذلك في باب الواشي مؤكداً على حرمة الكذب بأنواعه والهمز واللمز والفسق فيقول: والله عز وجل يقول: "ويل لكل همزة لمزة"^(١).

ويقول جلّ من قال: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا"^(٢).

فقد وسم الله عز وجل النقل بالفسوق.

هنا يستدل ابن حزم على آرائه فيستشهد بالقرآن الكريم فضلاً عن السنة النبوية، ليثبت كلامه، ويردع الوشاة والكذابين الذين يسعون إلى الإفساد بين الناس بكذبهم وهمزهم ولمزهم.

(١) القرآن الكريم، سورة الهمزة، الجزء الثلاثون، رقم (١).

(٢) القرآن الكريم، سورة الحجرات، الجزء السادس والعشرون، آية رقم (٦).

والمتأمل في الطوق يلحظ استخدام ابن حزم للأمثال في أشعاره متأثراً
ببيئته الأندلسية، والاستشهاد بالأمثلة العامية، لأنها أقوال موجزة لكن دلالتها
ومعناها كبيران ومن ذلك قوله في باب الواشي. "أما المحب فهيهات حال
الجريض دون القريض"^(١).

والجريض الغصة من الجرض أي الريق يغص به يقال: جرض بريقه
تجريض، والجرض هو أن يبتلع ريقه على هم وحزن، والقريض هو الشعر، وحال
أي منع، يضرب للأمر يقدر عليه أخيراً حين لا ينفع أي يضرب للمعضلة.

وأصل المثل هو أن رجلاً كان له ابن نبغ في الشعر فنهاه أبوه عن ذلك،
فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك، فأذن له أبوه بقول الشعر فقال
هذا القول: "حال الجريض دون القريض".

ويظهر تأثر ابن حزم بالأمثال العربية والموروث الأدبي القديم فيما أورده
في باب الهجر قال: "كان لا يلبث على زي واحد كأبي براقش حيناً يكون في
ملابس الملوك وحيناً في ملابس الفتاك"^(٢).

(١) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد
الحميد، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، رقم المثل، ١٠١٧، ص ١٩١.

(٢) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ٢٠٠.

أبو براقش هو طائر ملون بألوان عدة يتلون في اليوم عدّة ألوان ويضرب
المثل للمتلون الذي يظهر نفسه بعدّة أوجه وألوان بالحرياء وفقاً لما يعترضه من
مواقف.

والمتأمل في الطوق يلحظ أن ابن حزم لم يستخدم الأمثال في لغته النثرية
فحسب وإنما استخدمها في الشعر أيضاً من ذلك قوله:

كالكلب في الآرى لا يعتلف ولا يخلي الغير أن يعتلف^(١)

لقد استشهد ابن حزم بالأمثال العامية متأثراً بالبيئة الأندلسية فالأمثال
أقوال موجزة إلا أن دلالتها ومعناها كبير.

فقد شبه ابن حزم حال الرقيب بحال الكلب الذي لا يأكل ولا يجعل غيره
يأكل، وكذلك الرقيب لا يتهنئ بشيء ولا يجعل غيره يتهنئ بما لديه.

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، ٢٠٠٨، ص ١٦٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخاتمة

تمخضت دراسة كتاب طوق الحمامة عن تجليه جانب مهم من تراثنا الأدبي في هذا المضمار الذي يتصل بالعشق، و يمثل المرآة الحقيقية التي تعكس جوانب كثيرة من حياة الأندلس والأندلسيين.

وكانت أهم النتائج لدى الباحثة من الدراسة ، ما يمكن اجماله بما يأتي:

إذا كان المخطط له أن يدرس الطوق دراسة سردية، فقد ظهر من خلال الدراسة أن الطوق بني بناية سردية تجلّت في ثناياها ظواهر السرد المهمة كالوصف والاسترجاع والحوار والمنولوج الداخلي، ومن ثم فإن طوق الحمامة يمكن عده مثلاً واضحاً طبقت عليه عناصر السرد وتقنياته، فقد حفل الطوق بالأمثلة الواضحة على استخدام عنصر الوصف والحوار، وكان ذلك جلياً من خلال حديث الشخصيات التي سردت قصصها وحكاياتها في العشق، ووصفت ما حصل معها من مواقف وما عرض لها من مشاعر وانفعالات.

كما ظهر استخدام تقنيات السرد واضحاً في الطوق، فقد استخدمها ابن حزم ،على سليقته دون قصد منه. و ظهرت دون الحاجة إلى تحليل وتعليل

فجاءت تتناغم مع سرده لقصصه. وعلى رأس هذه التقنيات تقنية الاسترجاع، فقد ربط ابن حزم ماضيه بحاضره، فلم يكن قادراً على نسيان ماضيه الذي يعيشه في حاضره الذي قد يكون السبب في إشعال شرارة الحماسة للاستجابة لرغبة صديقه وكتابته للطوق.

وكان لتقنية تكبير الشخصيات حضور في الطوق، وذلك لأن ابن حزم خاض في موضوع حساس قد يسبب الحرج للآخرين، لذا فقد تفادى ذكر أسماء بعض الشخصيات تجنباً للحرج.

هذا إلى جانب الكثير من تقنيات السرد التي تمت الإشارة إليها في مواضعها من الدراسة. كما حمل كتاب الطوق السمات النثرية البارزة في عصر ابن حزم، فقد اعتمد على المأثور من الأمثال والشعر، بالإضافة إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد سيطرت الروح الإسلامية على النص، من خلال الاقتباسات مما أدى إلى وضوح المنهج الإسلامي لدى ابن حزم، وتتنوعت الجمل الإنشائية في الرسالة ما بين استفهام وتمنٍ وأمر ونداء وقسم ودعاء وغير ذلك، حيث أدت هذه الجمل وظيفتها من خلال النص، عبر استخدام ابن حزم لجمله البسيطة التي توضح غرضه بسهولة.

وأيضاً كان من النتائج والملاحظات التي توصلت إليها الباحثة استخدام ابن حزم للرمز في اختيار العنوان، (طوق الحمامة) وما يحمله من دلالة فنيّة وإيحائية، تحمل معنى المودة والسلام وكذلك ما يحمله الطوق من معاني الزينة والثبات، فقد وفق ابن حزم في ذلك.

ولا أقول أنني بلغت الكمال في هذه الدراسة اللهم إني لم أوفر جهداً إلا بذلته ولم أترك باباً إلا طرقته ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتقدم بكل الشكر والتقدير والعرفان بالجميل لأستاذي وأبي ومرشدي الكريم فضيلة الأستاذ الدكتور عزمي الصاحي على ما بذله معي من عظيم الجهد وتحمل معي كثيراً من المشقة حتى تكتمل هذه الدراسة بالصورة المطلوبة جزاه الله عني كل الخير والتوفيق والسداد.

وفي الختام أتمنى أن أكون قد أفلحت في دراسة طوق الحمامة لابن حزم من منظور سردي وآتيت بما هو اعتقدت أنه من الجديد.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم، عبد الله، **السردية العربية الحديثة**، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، الطبعة الثانية، ١٩٩٢.
- ابن السراج، أبي محمد بن جعفر بن أحمد، **مصارع العشاق**، تحقيق بسمة أحمد صدقي الدجاني، عمان، الوزارة، ٢٠٠٣.
- ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تحقيق إحسان عباس، القسم الأول، المجلد الأول، دار الثقافة، بيروت لبنان، ١٩٩٧.
- ابن حزم الأندلسي، أبي محمد بن أحمد بن سعيد طوق الحمامة في الألفه والألآف، تحقيق فاروق سعد، دار الحياة بيروت، لبنان، ١٩٦٨.
- ابن حزم الأندلسي، أبي محمد بن أحمد بن سعيد، **طوق الحمامة في الألفه والألآف** تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.
- ابن حزم الأندلسي، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد، **طوق الحمامة في الألفه والألآف**، تحقيق إحسان عباس وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ٢٠٠٨.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، المجلد الثالث، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.
- ابن منظور الأفرقي المصري، جمال الدين محمد مكرم لسان العرب، المجلد العاشر، دار صادر، بيروت، لبنان، (د. ت).
- الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبه المنار، الجزء الأول، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
- الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٨.
- الحميدي، عبد الله محمد بن أبي نصر الأسدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، دار العلم للملايين، الجزء الرابع، ١٩٩٠.
- المرزبوق، جهاد، بناء الخطاب الروائي، عند أحمد الزعبي، دار الكرمل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الأول، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٧٨.

- بروكلمان، كارول، تاريخ الأدب العربي، القسم الرابع، الهيئة المصرية العامة،
١٩٩٣.
- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي
العربي، بيروت الحمراء، ط٣، ٢٠٠٠، ص ٤٥-٤٦.
- رضوان، عبد الله، البنى السردية (١)، نقد القصة القصيرة، دار الكندي للنشر
والتوزيع، اردن، الأردن، عمان عاصمة الثقافة والفنون، ٢٠٠٢.
- عبد الرحيم، مصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي في الأندلس، في القرن
الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.
- عبد الله، حسن، الحب في التراث العربي، إصدار المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب الكويت، ١٩٨٠.
- عبد الواحد، مصطفى، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف، مصر،
القاهرة، الجزء الثاني، ١٩٧٢.
- قاسم، سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة لنجيب محفوظ، الهيئة المصرية
العامة، ١٩٨٤.
- مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس
الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨.
- هيكل، أحمد، من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، طبعة ٢، ١٩٩٧.

- يوسف، مي أحمد، **جماليات السرديات التراثية، دراسات تطبيقية في السرد العربي القديم**، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١١.

قائمة الدوريات والأبحاث

- إدريس، نجمة عبد الله، مقال طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي، خطاب في الأدب أم خطاب في الثقافة، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، العدد ١٢٥/١٠٠، الكويت ٢٠٠٧.

- بريوش، عفيف، **المرأة في طوق الحمامة، رشقات ابن حزم الأندلسية**، مجلة عمان، الأردن، ٢٠٠٧.

- حسين، طه، **مقال في الحب**، مجلة الكاتب المصري، مجلد ٢ عدد فبراير، ١٩٤٦.

- فريبير، محمد، **سلطة الشعر وسطوة السحر**، مجلة دراسات أندلسية، عدد خاص، ٢٠٠٧.

- منصور، آمال، **تمثلات المرأة في طوق الحمامة، لابن حزم مقارنة ثقافية**، في **خطاب العشق**، المؤتمر النقدي السابع عشر، الأدب الأندلسي، بناء وموضوعا ولغة وصورة، جامعة محمد خيدر، بسكرة الجزائر، ٢٠١٤.

Abstract

This study aimed at analyzing the book of "Necklace of Dove in Intimacy" for Ibn Hazam Al-Andalasy. Besides studying the book individually by focusing on narrative initiations in necklace and analyzing the most important forms of it. Which comprised multiplicity of pronouns and depersonalizing personality, retrieval or other literary genres and quotations from the Holy Quran and Sunna; and Arabic proverbs.

The study came up with salient conclusions which included analyzing tales of Necklace of Dove from a narrative point of view and bringing to light what a story holds of individual technicality such as: multiplicity of pronouns third person, second person and first person. As well as the contrast of these pronouns with different tenses in a narrative style based on description and internal and external dialogue.